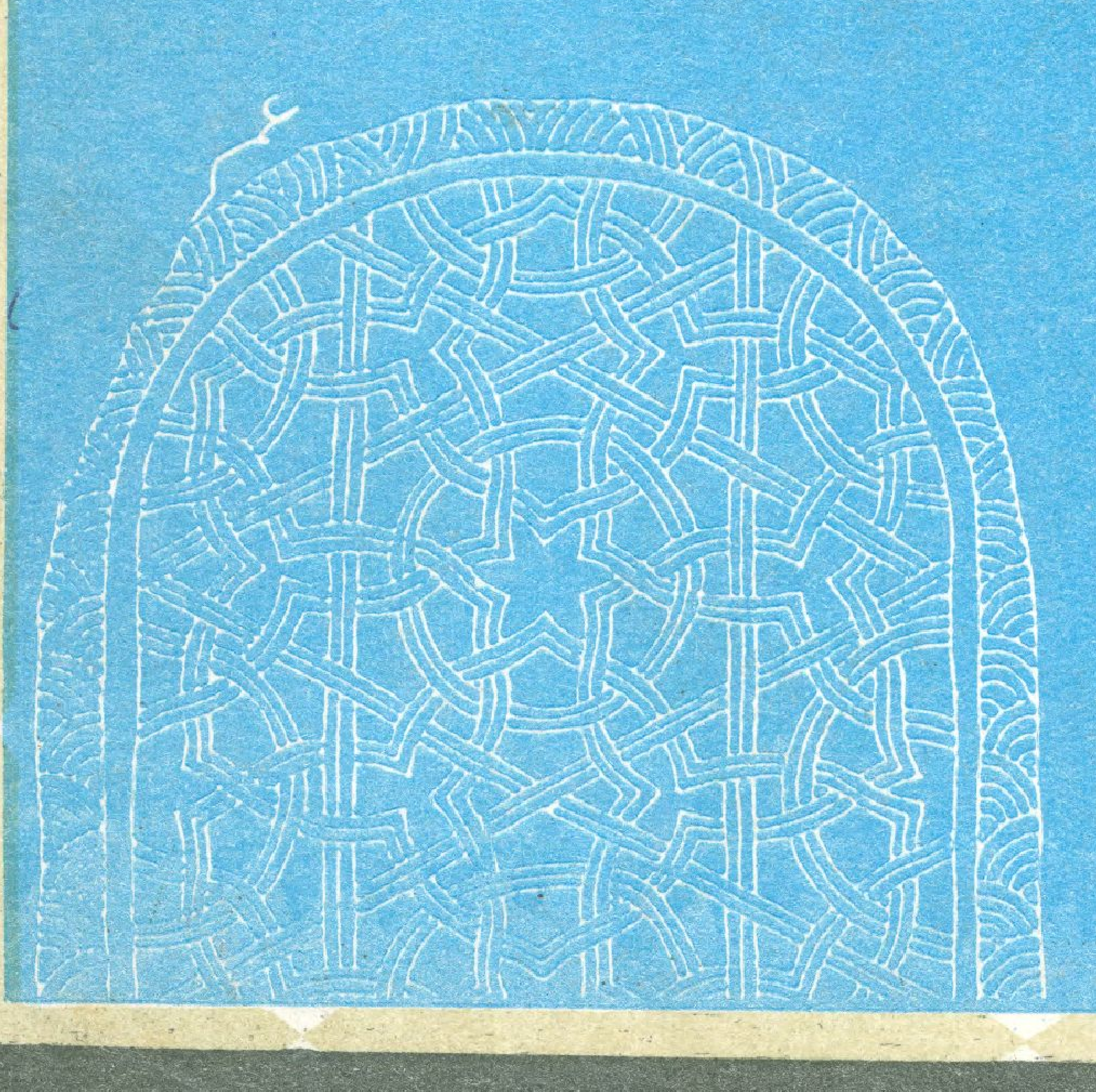


٩

صلة الإسلام بإصلاح المسيحية





الأعمال الكاملة

الجزء التاسع

صلة الإسلام بإصلاح المسيحية

أمين الخولي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

صلة الاسلام باصلاح المسيحية

بحث قدم وألقيت خلاصته

فى مؤتمر تاريخ الأديان الدولى السادس المنعقد بمدينة بروكسل

من ١٦ الى ٢٠ سبتمبر ١٩٣٥

الاخراج الفنى والغلاف : عمر حماد على



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة (١)

من قلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر

فى سنة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م دعى الأزهر لحضور مؤتمر تاريخ الأديان الدولى السادس المنعقد بمدينة بروكسل ، فى شهر سبتمبر من تلك السنة ، فلبى الدعوة وأوفد حضرتى صاحبى الفضيلة ، الأستاذين مصطفى عبد الرازق ، وأمين الخولى ، وقد اختار الأستاذ الخولى موضوعا لبحثه «حادث الاصلاح البروتستانتى فى المسيحية» فكتب فيه هذه الرسالة ، بحثا عن الصلة بين هذا الحادث وبين الدين الاسلامى والعلوم الاسلامية .

موضوع طريف ، وبكر ـ فيما أظن ـ ويبدو كأنه غريب . لكن الأستاذ الخولى بما منح من رجاحة العقل ، ودقة البحث ، وسعة الاطلاع ، استطاع أن يزيل هذه الغرابة ، وأن يمهد الطريق للوصول الى رأى صائب فى الموضوع .

---

(١) ألف الناس من هذه المقدمات ما هو التقريظ أو ما يشبهه ، لكنما أراد الله أن تكون هذه المقدمة مثلا من حرية الفكر ، ونزاهة النظر الدينى فى مناقشة مولانا الأستاذ الأكبر ، لنتائج هذا البحث ، بما تركته بين يدى القارىء دون تعليق ـ المؤلف .

وحركة الاصلاح المسيحى حادث من الحوادث البارزة فى تاريخ الأديان ، وما من حادث فى هذا الوجود ، الا وهو أثر لغيره ومؤثر فى غيره ، والحوادث العظيمة ترتبط عادة بأسباب كثيرة سابقة ، وقد يكون السبق بزمن طويل ، ثم من الأسباب ما يكون واضحا ، ومنها ما يكون خفيا حتى لا يدرك الا بعد العناء ، أو بعد سفر من الخاطر طويل ٠

وقد شاء الأستاذ الخولى أن يرى صلة حركة الاصلاح البروتستانتى بأصول الاسلام ، وعلوم الاسلام ، ونظم بحثه على ثلاثة فصول :

الأول : فى اثبات الاتصال المادى بين الاسلام والمسيحية فى أوربا ٠

الثانى : فى اثبات الاتصال المعنوى بين الاسلام والمسيحية فى أوربا ٠

الثالث : فى آثار ذلك الاتصال ٠

★★★

وقد أثبت الاتصال المادى والمعنوى ، بما أرى أن فيه غناء للمنصف ٠ فالحروب بين الاسلام والمسيحية فى الشرق والغرب ، وتبادل الأسرى ، والفتح وبسط رواق الحكم والسلطان الاسلامى فى الغرب، وغزو الفرنجة بلاد المسلمين، واختلاط الجند فى الشرق والغرب ، واستعانة المسلمين بغيرهم فى مرافق الدولة وأعمال الحكومة ، واستعانة غيرهم بهم فى ذلك ، والوفود التى تفد من الجانبين للصلح وتقرير العلاقات ، أو لورود البلاد ، والانتفاع بما فيها من مناخ وموارد ، وتبادل التجارات ، كل ذلك لا يدع مجالا للشك فى هذا الاتصال المادى وقوته ٠

ثم مرور حقبة طويلة من الزمان ، كان الغرب فيها غارقا فى الأمية والجهالة ، وحركة نقل المعارف الاسلامية وترجمتها ، وترجمة القرآن الكريم نفسه ، وتعلم اللغة العربية ، واللغة العبرية لأنهما لغتا العلم ، والواسطة

لدراسة العلوم الاسلامية وعناية الملوك والأمراء ، ورجال الدين بهذه الحركة والتأثر بأعلام العلماء الاسلاميين ، كابن سينا ، والغــزالى ، وابن رشــد • كل ذلك ثابت ، وقد أتى الأستاذ بالشواهد عليه ، وبالأسانيد التى لا تقبل الجدل ، وهو برهان الصلة المعنوية بين الغرب وبين الاسلام ، ومن الحق أن يقول الأستاذ بعد استيفاء هذا كله (•• من كـــل هذا يتجلى للقارىء التأثير الاسلامى الذى أوضحنا قوته فى أوربا بعامة ، وأنه كان بخاصة فى البيئة الجرمانية ــ الميدان الأخير للاصلاح ــ واضحا قويا) •

ومن الواقع أن حادث ظهور الاسلام وانتشاره بالسرعة الفائقة التى انتشر بها فى الشرق والغرب ، وخلافته عــلى دول عريقة فى المدنية والأدب ، قوية السلطان ، واقتران ذلك بالقوة المادية ، وسلطان الحكم ، والاستيلاء على البلاد التى جاءها ، وحصول ذلك على أيدى رجال لم يعرفوا من قبل بعلم ومدنية ، ولم يعرفوا بنظام حربى دقيق ، من شأنه أن يحمل المغلوبين وغير المغلوبين على التفــكير فى الروح التى وصلت بهؤلاء الى ذلك المجد الحربى ، والمجد الروحى والى ذلك السلطان القاهر، وفى الأسباب التى أثارت هذه الروح، وفى معرفة ما جاء به القرآن الكريم ، وما جاء به من نزل عليه القرآن الكريم ، ومعرفة ما تخلقوا به ، وما اتخذوه نظاما لهم فى حياتهم العامة • والخاصة ، أضف الى ذلك أن المسلمين لم يكتفوا بالقوة المادية ، وقوة الوحى ، بل ســعوا الى المعرفة يتلمسونهــا فى كل ناحيــة من الأرض ، وقام خلفاؤهم على حياطة الحركة العلمية وشاركوا فيها ، واشترك فيها من تسلل من البيوت العريقة فى المجــد ، ومن كان من الموالى وأشباه الموالى ، ثم ما اتصف به الخلفاء الراشدون ، وأكثر الولاة فى عهدهم واتصف به غيرهم ممن بعــدهم • مما حبب الى الناس أرضهم وبلادهم ، وحبب اليهم حــكمهم والاستظلال برايتهم • وعلى ذلك يمكن القول مع الاطمئنان بأن هذا الاتصال أثر أثره ، وعمل عمله دون اقامة الشواهد

والأدلة ، فان هذا طبيعي يدركه كل من راقب سير الوجود، وسير العلم فى هذا الكون .

وقد كانت اليابان أمة لا يأبه لها الغرب ولا يعدها فى مصاف الدول المتمدينة ، حتى جاء حادث الحرب بينها وبين الروسيا سنة ١٩٠٤ ، وكان لها الغلب فتغيرت موازين الأمور ، وتغير قدرها ، ونظر اليها الغرب نظره الى أمة عريقة فى المجد ، وعاملها المعاملة التى يستحقها مجدها الحربى والعلمى .

لكن ربط حركة الاصلاح المسيحى خاصة ، بالدين الاسلامى ، والمعارف الاسلامية : من فلسفة وتصوف وما الى ذلك يتطلب بلا شبهة اقامة الشواهد ونصب الأدلة ، وهذا ما حاوله الأستاذ الخولى فى رسالته .

ويجدر بنا أن نشير هنا الى جملة حكيمة قالها الأستاذ فى الرسالة وهى : أننا « حين نفسر هذا الاتصال وذلك التأثر ، لا نزعم أنه هو وحده الذى خلق حركة الاصلاح المسيحى ، وأنه سببها الأول والأخير ، بل نقدر ما هنالك من أسباب وعوامل اجتماعية ، ودينية ، وغيرها قد عملت عملها ، وتركت أثرها ، ودفعت الحياة الى ذلك الاتجاه ، فلفتتها الى الناحية العقلية والدينية ، التى قربها لها وقدمها بين يديها ذلك الاتصال بالشرق الاسلامى ، فمقصدنا العلمى انما هو القاء الضوء الكافى على الجانب التاريخى من اتصال الدينين المسيحى والاسلامى ببيان هذا الاتصال وأثره » .

فهذه الكلمة الصادرة عن نزاهة فى البحث، وعن اعتدال فى تقدير الأشياء تدفع ما قد يظن أنه يوجه الى البحث من نقد ، فالأستاذ لا يدعى أن الاصلاح المسيحى ثمرة مباشرة للمعارف الاسلامية ، تفردت تلك المعارف بايجادها ولولاها لما وجد الاصلاح بل يصرح بأن الاصلاح كان نتيجة لعوامل كثيرة اجتماعية ودينية وغيرها ، وغاية الأمر أن المعارف الاسلامية كانت تحمل العناصر التى يمكن أن تصاغ

منها أمنية المصلحين ، وأنها جذبت الأبصار اليها ووجهت العقول نحوها ، وخلقت مزاجا أعانهم على ما اختاروه ٠

ومثل هذا حاصل الآن عندنا ، فان اتصالنا الحديث بالغرب اتصالا ماديا ومعنويا ، ونقل آثاره العلمية الى لغتنا، ومعرفتنا بلسانه ، ثم تفوقه الحربى والعلمى ونفوذه المنبسط على الشرق ، كل أولئك قد بعث فى الشرق روحا جديدة تغاير الروح التى كانت سائدة فى القرن الماضى ، بل غير العادات والتقاليد ، ومناهج التفكير ٠ ومن المتعلمين من مرق من الدين ، ومنهم من حاول التوفيق بين الدين والعلم الجديد ، ومنهم من نبهه البحث الجديد الى اعادة النظر فى التراث القديم لاختيار ما هو أصلح منه ، ومنهم من اتجه لتحرير القديم مما زيد فيه وابتدع ٠ وليس من الواجب أن يكون المثال المنتزع من مثال آخر مطابقا له من جميع الوجوه أو من أكثرها ، بل قد يأخذ المثال بعض خصائص الأصل فى المعنى والصورة ويوجد مثالا آخر يوافق مزاجه ، ويوافق عقيدته الموروثة ، ويوافق البيئة التصرف وغير ذلك ٠

وكما أن معارفنا تأثرت حديثا بمعارف الغرب ، فقد تأثرت من قبل بما أفاد المسلمون عن غيرهم من علم وفلسفة ٠ والناظر فى علومنا الاسلامية يلمح هذا التأثر فى كل شىء : يلمحه فى علم أصول الدين ، وعلم أصول الفقه ، وفى الفقه نفسه ويلمحه فى التفسير ، وكتب شراح الحديث ، وفى كتب التصوف وغير ذلك ٠

★★★

نعود بعد هذا الى الفصل الثالث من فصول الرسالة ، وقد قسم الأستاذ الخولى الآثار الناجمة عن الاتصال المادى والمعنوى قسمين :

(أ) آثار عامة ٠

(ب) آثار خاصة ٠

وعد من الآثار العامة : الغض من سلطة الكنيسة ، وتحرر العقل البشرى ٠

واستدل على الأول بخمود الحماس الدينى ، أثر انتهاء الحروب الصليبية ، حتى لم يعد كافيا لتحريك القلوب ، وحتى انتهى الأمر بتحديد سلطة الكنيسة ٠

ومما لا جدال فيه ، أن هذين الأصلين عريقان فى الاسلام ، فهو دين لا يعترف لأحد كائنا من كان بسلطة دينية على أحد ، الا ما أعطى للامام من حق فى المباحات يوجبها أو يحظرها وفقا للمصلحة العامة ، والا ما أوجبه على العامة من استفتاء العلماء فيما لا علم عندهم به ٠

أما العلماء فلهم حق تفسير الكتاب وحق استثمار الأحكام منه ، ومن السنة المطهرة ، وعليهم العمل بما اعتقدوه أو ظنوه حكما لله ، لا يجوز لأحد منهم أن يقلد غيره ، وأن يتنازل عما هداه اليه اجتهاده ، وكلمة الامام الشافعى فى الأخذ بتفسير الصحابى معروفة « كيف آخذ بقول من لو عاصرته لحججته » ٠

وقد أثمر العقل ثمراته التى حفلت بها الأرض فى ظلال القرآن ، وتحت راية السنة المطهرة ٠ وخلف العلماء هذا التراث الخالد الذى نعتز به وتعتز به البشرية قاطبة ٠

وقد يكون الحد من سلطة الكنيسة ، وخمود الحماس الدينى اثر الحروب الصليبية أثرا من آثار الخيبة والفشل فى هذه الأعمال الطائشة ، التى ذهبت ضحيتها آلاف من الأرواح البريئة التى دفعت الى أتون الحرب ، لكن هل يذهب هذا بآثار اتصال الغربيين بالشرق ، وما شهدوا فيه من حياة عملية وعلمية ودينية ، تخالف كل ما عهدوا ، وما صور لهم عن هذا الشرق وأهله ودينه !!

وقد يقال ان تحرر العقل البشرى أثر من آثار العقل نفسه ، فقد خلق حرا طليقا يغضبه أن يقع فى الأسر والحجر ، ولما طال عليه الأمد فى قيوده لم يستطع الصبر ، فحاول

تحطيم الأغلال والقيود واستطاع بما ألقته الفلسفة أمامه من الضوء أن يفوز ببغيته ، وأن يعود الى طبيعته طليقا حرا • هذا ممكن وقريب جدا • لكن الذى قرب الفلسفة وقدمها هو الاسلام ، فهو بسبيل أن يكون له شأن فى تحرير العقل البشرى فى الغرب ، بعد استعباده العنيف ، واخلاده الى الركود •

★★★

وعد الأستاذ الخولى من الآثار الخاصة فكرا بعينها من أصول الاصلاح البروتستانتى منها :

(أ) رفض السلطة الكنسية للبابا والمجامع ، وهذه السلطة تشمل :

١ ــ مسألة الاعتراف •

٢ ــ مسألة الغفران : (وهو قائم على أن الأعمال الصالحة تدخر ليعطى منها الخاطئون) •

والاعتراف لرجل الدين حتى تصح التوبة ويمحى الذنب لا شك فى أن الاسلام ينكره اذ أساسه أن الله وحده يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات •

وبيع الغفران كذلك ينكره الاسلام ، ولا يرى أن تزر وازرة وزر أخرى • بل كل نفس بما كسبت رهينة ، وقد ساق الأستاذ فى احدى تعليقاته شواهد كثيرة مما فاض به القرآن الكريم •

هذه الأصول التى وجدت فى الاسلام جاء بها الاصلاح المسيحى ، فهل الاسلام هو الذى قدمها للمصلحين كما يقول الأستاذ الخولى ؟ أو من الممكن أن يكون سببها الرجوع الى المسيحية قبل أن تشيع فيها البدع ، وقبل أن تخلق الكنيسة رسومها التى سيطرت بها على الناس ، وحاطتها بسياج من التقديس ؟

كل هذا ممكن ، ومن المرجح فى مسألة بيع الغفران أن الاصلاح فيها كان رجوعا الى المسيحية ، واتباعا لنص الانجيل . ولكن ما الذى لفت النظر الى الرجوع لمصادر المسيحية الصحيحة ، أهو العقل وحده أو هو ما قدمه الاسلام من علم ومعرفة ؟ يستوى الأمر عندى فيه ، ومؤرخ الأديان من حقه أن يلحظ الصلة وأن تقوى عنده سببية ما قدمه الاسلام .

(ب) الاكتفاء فى النجاة بتصحيح العقيدة ، دون حاجة الى وساطة الكنيسة بين الله والناس :

وقد ربط الأستاذ الخولى هذه القاعدة بفلسفة الغزالى، ووجد فى أقلام المؤلفين الأوربيين حلقات ، تكون سلسلة ذلك الاتصال بالغزالى وفلسفته . والفكرة مرتبطة فى الوقت نفسه بالقرآن الكريم ذاته ، فهو ملىء بتقرير هذا الأصل — « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون » . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » . « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفى الحديث من قال لا اله الا الله دخل الجنة .

فهذا أصل من أصول الاسلام عرض العلماء لبيانه ، ومنهم الغزالى فى فلسفة النفس ، واعتبارها جوهرا مجردا مستعدا للفيض الالهى .

هذا الأصل وجد فى الاصلاح المسيحى ، والعقل يرشد اليه . لذلك يصح التساؤل أهو مأخوذ عن الاسلام ؟ أو عن هدى العقل ، وهدى المسيحية الأولى ؟ ومن الممكن أن يستمر الاستاذ الخولى على رأيه فى أن الاسلام هو الذى أعان عليه بما قدمه للعقل من علم ومعرفة ، ومعه مؤرخو الفلسفة الذين يتبعون الصلة من الغزالى الى لوثر نفسه .

(جـ) اعتبار كلمة الله هى الضابط الوحيد ، وبعبارة أخرى جعل الحكم لله وحده :

وقد اتفق المسلمون على أنه لا حاكم الا الله ، حتى الذين قالوا بحكم العقل قالوا انه يدرك حكم الله ، ولا ينشىء حكما فالله وحده صاحب السلطان • واتفقوا على أن ما جاء فيه وحى فمرده الى الوحى •

وفى التنزيل الكريم « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » ـ « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ـ « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » •

فوجوب اتباع الوحى لا يختلف فيه أحد من العلماء ، قديمهم وحديثهم فى ذلك سواء • وانما الخلاف فى أمور أقل شأنا من هذا ، مثل أن القياس حجة لأن النصوص لم تشتمل على حكم جميع الأشياء ، أو غير حجة لأن النصوص تشتمل جميع الاشياء • ومثل جواز تأويل ظاهر النصوص وعدم جوازه • وليس الظاهرية وحدهم هم المشددون فى اتباع النصوص ، وعدم التأويل ، بل لهم أسلاف فى ذلك من العلماء فليس مذهبهم جديدا •

هذا الأصل من أصول الاسلام بلا شبهة ، قد وجد فى الاصلاح المسيحى البروتستانتى ، وقبل الاصلاح بزمن مبكر • واذا نحن أمعنا النظر نستطيع ادعاء أن كل من يعترف بالله ورسله ولم تفسد فطرته ، او تحجب بأغشية الضلال ، يدرك بداهة أن شؤون الآخرة ، وطريق الوصول اليها مما يجب أن تكون الكلمة فيه للوحى ، وقد كانت الاديان قبل طروء الفساد عليها على هذا المبدأ • فالرجوع اليه قد يكون رجوعا الى المسيحية ، أو رجوعا الى مقتضى العقل • لكنا نرجع فنقول أن الاسلام قدم المعرفة ، وقدم أصوله الحقة للغرب • ووجه العقل والوجدان ، وأزال الاغشية عن البصائر ، فمن المحتمل جدا أن يكون له فضل هذا الأصلاح •

(د) لمن يكون حق تفسير الكتاب ؟ وتتصل هذه المسألة بحركة التوفيق بين الدين والفلسفة ٠

قد يكون الخلاف فى التفسير ومن له الحق فيه مما وجد عند المسلمين فى زمن مبكر ، فكان هناك من يحاول منع التفسير بالرأى، وإن كانت الغلبة لمن يجيزه للعلماء القادرين عليه كافة ٠

وقد أقام رجال الكنيسة أنفسهم فى عهد السيطرة مقام المعصوم ، فأجازوه لأنفسهم دون غيرهم ، وجاء رجال الاصلاح البروتستانتى فأجازوه لكل مسيحى ٠

ومحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة وجدت فى الاسلام منذ وجدت الفلسفة عند المسلمين ، وانكار ذلك أيضا وجد عندهم قديما وحديثا ، فالمسلم الفيلسوف ، يرى من الحق عليه ان يحاول التوفيق بين علمه ودينه ، لأنه يرى صحة الامرين ٠ وغير الفيلسوف يرى الحق لدينه فقط ، فينكر ما عداه ٠ والفيلسوف غير المتدين يعد نفسه حرا طليقا لا يبالى ما يخالف الفلسفة ، وهذا أمر طبيعي وجد عند المسيحيين أيضا ٠

وقد اراد الأستاذ الخولى أن يربط ما تم فى الاصلاح البروتستانتى بما هو حاصل فى الاسلام لما عرف من صلة رجال هذا الاصلاح بالفلسفة المعروفة اذ ذاك ، والصلة القوية لهاتيك الفلسفة بالتفكير الاسلامى ٠ وأنا أرى هذا شيئا قد يكون طبيعيا ، اذ لقى المسيحيون من عنت رجال الكنيسة وصلفهم ما يكفى وحده للثورة عليهم ، وتحرر العقل البشرى من هذه القيود ٠

(هـ) امكان تحول الخبز والخمر فى العشاء الربانى ألى جسد المسيح ودمه :

ولعل الانكار فى هذه المسألة لا يحتاج الى شىء أكثر من لفت النظر ، الا أن العقول اذا خدعتها الخوادع اطمأنت الى

مالا يحتاج ابطاله لكبير عناء • والأستاذ الخولى قد نظر فى تاريخ المسألة ، ووجد أن فكرة الاصلاحيين فى هذا التحــول مأخوذة من فكرة فلسفية سابقة وفقت بين العقل الذى لا يطمئن الى هذه الاستحالة ولا يسلم بها فى سهولة ، و بين الدين الذى يقرر هذه الاستحالة ، فانتهت الى وجود المسيح بجانب الخبز والنبيذ ، دون استحالتهما حقيقة • ورأى أن الفلاسفة من أصحاب هذه الفكرة ربما تأثروا بالحل الاسلامى الذى انتهى اليه الموفقون بين الدين والفلسفة فى مسألة الأسباب والمسببات فقرروا أن المسببات توجد عند أسبابها ولا توجد بها •

ولعل الشبه بين المسألتين مما فيــه محــل للنظر ، فانى لا أشعر بقوته شعور الأستاذ الخولى بها •

(و) الثورة على الأصنام والصور وتحطيمها :

وربط هذه المسألة بقواعد الاسلام ، وملاحظة تأثيره فيها مما يطمأن اليه •

★★★

والآن وقد فرغت من تلخيص القسم الثالث من الرسالة، لا يجوز لى أن اختم القول دون اظهار اعجابى بســعة اطلاع الأستاذ الخــولى ، وقوة صبره عــلى الدرس والبحث ، وقوة استنتاجه •

والأستاذ الخولى رجل يحب الجدل ، ولا يقتنع الا حيث يصح الاقتناع وهذا الشأن منه هو الذى حبب الى منازعتــه فى الرأى •

وان ما قاله فى بحثه من أنه لا يدعى أن صلة الغــرب بالشرق هى السبب الوحيد فى الاصلاح المسيحى لكفيل بأن يرد عنه النقد أو يخفف وقعه •

واذا علمنا أن الموضوع لم يحــاول من قبــل تملكنــا الاعجاب بعمله •

وهذه الدراسة التى حاولها الأستاذ فى هـذه المسألة ، خليقة بأن يقتدى بها علماء الدين فى دراسة الأديان ، دراسة مقارنة • فهى تعين على أداء رسالة الاسلام وتوسع أفق العالم المتدين ، وتزيده بصيرة فى دينه ، وتقديرا لعلماء السلف من المسلمين • والله ولى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

محمد مصطفى المراغى

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحـة

١ ـ البحث العلمي النزيه ، عن اتصال الأديان وآثار ذلك الاتصال ، خطوة صالحة ، فى سـبيل السـلام العالمى ، والاخوة الانسانية ، التى سمت اليها الروح الدينية العالية، وحلمت بها الفلسفة منذ شروق شمس الحياة الفكرية ، ثم لا تزال تتطلع اليها العناصر الكريمة فى الحياة العاملة •

هو بحث يوسع أفق المتدينين ، ويدفعهم من التدين الى أطهر معانيه ، على حين هو فى الوقت نفسه ، واجب علمى لخـدمة الحقيقة ، يتـولاه الباحثـون فى تاريخ الأيان ، ومقارنتها •

٢ ـ والاتصال بين المسيحية والاسلام فى الشرق كان موضوع دراسات كثيرة(١) ولم يكن الاتصال ـ غيرالقصير ـ بينهما فى الغرب موضوعا لمثل تلك الدراسات •

---

(١) من مظاهر ذلك : ما فى دراسات العقائد ، ومجادلات أهل الدينين ، ومنه ما فى البدع والزيادات التى تأثر بها كل قوم من مخالطيهم ، ومنه ما فى دراسة الحياة الاجتماعية للأقطار التي جاور فيها المسلمون النصارى ، وما تأثر به هؤلاء وأولئك ، وفى كل هذه أبحاث متفرقة يمكن تتبعها •

والاصلاح البروتستانتي أكبر حادث متأخر في حياة المسيحية بعامة ، وأكبر حادث في حياتها الأوربية بخاصة • ومن أجل ذلك تسهل ملاحظة هذا الاتصال وآثاره فيه ، ولهذا اخترته موضوعا للدراسة ، قصدت فيه الى رسم الخطوط الأساسية ، والصورة الاجمالية لهذا الاتصال ، وذلك التفاعل (٢) بين الدينين الكبيرين ، تمهيدا لدرس أعمق من ذلك ، يتلوه ان شاء الله ، في رعاية دائمة لحقوق البحث التاريخي النزيه ، المتصدى لطلب الحقيقة البريئة الرزينة •

٣ ـ وانما أقصد الاسلام من حيث هو عقيدة لمعتقديه ، ثم أعمال ومظاهر دينية في حياتهم ، وكذلك من حيث هو فكر وآراء عند دارسيه من المتكلمين ، وفلاسفة المسلمين ، فلكل ناحية من هذه النواحي آثارها •

وأقصد بالاصلاح المسيحي ، تلك الأعمال المادية والعقلية ، التي بذلت في سبيل تغيير نظام الكنيسة الرومانية ، خلال قرون طويلة ، وأجيال متعددة ، حتى جاء « مارتن لوثر » ذلك الرجل الشجاع الذى صير الاصلاح حقيقة واقعة ، وعملا مقررا • فهذا هو الوضع التاريخي الصحيح لحركة الاصلاح •

٤ ـ ومنهجي في ذلك الدرس طبيعي ، مرتب على أن أبحث :

(١) عن الاتصال المادى بين الاسلام والمسيحية في أوربا • ثم :

(٢) عن الاتصال المعنوى بين الاسلام والمسيحية في أوربا • ثم :

(٣) عن آثار ذلك الاتصال في أفكار الاصلاح المسيحي ، وآراء دعاته ، خلال تلك الأزمنة الطويلة •

---

(٢) عبرت بالتفاعل وفي النفس ان شاء الله ان اعمد الى دراسة ما تأثرت به الحياة الاسلامية الدينية في الغرب ، وافترقت به عن نظيرتها في الشرق •

الفصل الأول

الاتصال المادى بين الدينين

١ ـ أظهر مظاهر هذا الاتصال بين الدينين ، تلك المواجهة الحربية بين أخلاط أمم الشرق ، ومختلف عناصر الغرب ، المواجهة التى سعى فيها الشرق حينا الى الغرب ، والغرب آنا الى الشرق ٠

فمنذ منتصف القرن السابع الميلادى ، خرج الاسلام يواجه المسيحية على شواطىء البحر الأبيض المختلفة ، فمازال حتى رده بحيرة اسلامية أو تكاد ، فاحتكم فى شواطئه الشرقية والشمالية والجنوبية ، وألقى جرانه غربا بالأندلس ، واستقر فى تلك المواطن أزمنة تختلف طولا وقصرا ٠ توطن فى أسبانيا وجنوبى فرنسا ، وايطاليا ، وساد سائر جزر ذلك البحر ، وكثرت مناوشاته للقسطنطينية فى المشرق ، وامتد فى فترات متقطعة الى غير ذلك من الغرب ، ففتح المسلمون نابل (نابولى) وجنوة (جنوة) (١)، وتغلبوا على رومية فى القرن التاسع ، حتى استنقذها البابا (حنا) بوعدهم جزية كبيرة ، واستنجد عليهم ملكى فرنسا وألمانيا ٠ هذا الى غارات لهم على مختلف المدن فى أنحاء ايطاليا (٢) ٠ كما امتلكوا بعض شواطىء نهر ردونه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٩٩ (ط ٠ مصر) ٠

(٢) سيديو .Sedeillat : خلاصة تاريخ العرب ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ٠

(الرون) ، ووصـلوا الى لودون (ليون) (٣) ، وامتلكوا صخرة ابنيون ، (افينيون) (٤) • وأقاموا بها بضع سنوات، وتلك الصخرة هى التى كانت فيما بعد مقر البابوية بضـع عشرات من السنين فى القرن الرابع عشر ، وكانت منطقة « الالبيجوا » التى تنسب اليها شيعة مسيحية شهيرة ، ميدان غاراتهم (٥) ، وتوطنوا الميم (سبتمانيـة) مما يلى جبـال البرتات من جنوبى فرنسا ، واذا ما خرجوا منه لم يلبثـوا أن يعودوا اليه (٦) • وكذلك ظلوا فى بعض جهات جنوبى فرنسا من أواسط القرن الثامن الميـلادى الى القرن العاشر على رأى بعض المؤرخين (٧) •

٢ ـ واتصلت بذلك الفتح المنظم حـركات عصـابات اسلامية قوية استوطنت فراكسينت ، عـلى حـدود فرنسـا وايطاليا ، ولبثت فى تلك المنطقة وما حوالها حتى القـرن العاشر الميلادى ، واحتلت مضايق الألب بحيث وقعت طرق الاتصال بين فرنسا وايطاليا فى قبضتهم (٨) ، بل عوهدوا على الاذن بالمرور منها معاهدات منظمة ، وهكذا أقاموا فى سافواى ، وجالوا فى جميع أنحاء سويسرا بلا معارض(٩)،

---

(٣) رينو M. Renaud كتاب غارات العرب على فرنسـا ، ومن فرنسا الى سافواى ، وبيمونت وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى ، حسب روايات المؤرخين المسلمين والمسيحيين • وهو أحد الكتابين اللذين ترجمهما الى العربية الأمير شكيب أرسلان ، ونشرا تحت اسم تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط : ص ٧٨ عربية •

(٤) رينو : المصدر السابق ص ١٠٤ •

(٥) رينو : المصدر السابق ص ٧٣ •

(٦) سيديو : ص ١٥٧ ـ ١٥٨ •

(٧) رينو : المصدر نفسه من تعليق المؤلف ص ١١٣ ـ ١١٤ •

(٨) رينو : المصدر نفسه ص ١٦٧ ، سيديو : المصدر نفسه ص ١٦٢ •

(٩) رينو : المصدر نفسه ص ١٧٦ ، سيديو : المصدر نفسه ص ١٦٢ •

وانتهى بهم الأمر الى استيطان هذه المناطق من أوربا والاستقرار فيها، فزرعوا وعمروا، وتزوجوا ونسلوا(١٠)٠

★★★

ثم جاء دور الغرب في أعقاب ذلك توا ، فرمت أوربا الشرق بأفلاذ أكبادها في الحروب الصليبية التي دامت قرونا ، وأسس الصليبيون على الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض ، امارات أوربية مسيحية ، واستولوا أحيانا على بيت المقدس ، واتصلوا في ذلك كله بقلب الشرق ، من مصر وسوريا ، وأطراف العراق وآسيا الصغرى ، فعرف الغرب الشرق في دياره ، بعد ما قدم الشرق نفسه الى الغرب في داره ٠

ويتلو هذا الدور اتصال الصراع بين الاسلام والمسيحية على حكم آسبانيا حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، عهد الاصلاح المسيحى الذى نتحدث عنه ٠

هذه الحروب المتداولة ، وذاك الاستعمار من الشرق للغرب ، ومن الغرب للشرق ، كل أولئك قد تهيأت به فرص عملية متنوعة للاتصال بين الدينين ٠ وها نحن أولاء نشير الى بعض ذلك :

★★★

٤ ــ في هذه الحروب ، وتلك المصادمات المختلفة ، كانت تؤخذ الأسرى من الجانبين ، فيطول مقامهم أحيانا الى أن يفدوا ، ويعودوا الى بلادهم ألسنة تعريف بما رأوا وسمعوا، بل بما تأثروا به من المؤثرات الفكرية والدينية والعملية للأمم التى خالطوها ٠ ولقد عرفت أوربا من هؤلاء الأسرى أسير قرصنة شهيرا ، هو الذى دعوه «**ليون الأفريقي**» وما هو **الا أبو على الحسن بن محمد الوزان الغرناطى الفاسى الذى**

---

(١٠) فرديناند كللر Ferdinand Keller : كتاب غارات العرب على سويسرا فى أواسط القرن العاشر ، وهو الكتاب الثانى من الكتابين اللذين ترجمهما الأمير شكيب تحت عنوان « غزوات العرب فى فرنسا ٠٠٠ » : ص ٢٥٨ ، وسيديو : الخلاصة ص ١٦٢ ٠

أسره القراصنة ، في عودته من لدن السلطان سليم العثمانى ، وقد كان سفر لديه عن ملك فاس مهنئــا له بالتغلب عــلى المماليك فى مصر والشام وفلسطين وبلاد العرب ، وأهداه القراصنة الى البابا ليون العاشر ، فحبسه فى قلعة القديس أنجلو ، برومية ، سنة كاملة ، حتى تعلم المسيحية عــلى يد ثلاثة أساقفة ، وعمد بعد ذلك في كنيسة القديس بطرس ، بيد ليون العاشر نفسه ، الذى أعطاه اسمه « جناليون » • ومن هنا عرف باسم ليون الافريقى ، وظل بايطاليا عهدا عاد بعده الى أفريقية وعاد الى اسلامه ، وهناك كتب الوزان كتبا كثيرة قيمة ، نذكر من بينها مما يعنينا : كتابه عن « القانون والعقيدة الاسلامية (١١) » • وكان أسر الوزان وحياته فى أوربا ابان ثورة الاصلاح بين سنة ١٥١٦ ــ ١٥٢٩ م • على أنى انما ذكرته مثالا فحسب ، لبيان ما قد يكون من التأثر والتأثير الدينى بالاسرى ، والنــازلين من أهل الدينين فى الشرق والغرب ، لا لأنا ندعى له بنفسه أثرا خاصا فى حياة الاصلاح المسيحى •

★★★

٥ ــ وما آن يتمادى الوقت حتى ترى الحرب نفسها أداة اتصال مباشر بين المسيحية بأهلهــا فى الغرب ، والاســلام بأهله فى تلك المنــاطق ، اذ نشــهد صفوفا من المسيحيين الأوربيين يقاتلون تحت اللواء الاسلامى : اما عن طــريق جعل الأسارى المسيحيين وسبيهم جنــودا ، واما عن طريق تقدمهم الى تلك الخدمة عن طيب خاطر (١٢) ، فى جيوش

---

(١١) دائرة المعارف الايطالية الجديدة مادة ليون Leone • وقد كتب الأستاذ أبو عبد الله محمد المهدى ابن الشيخ الحجوى الفاسى بحثا عن الوزان قدمه لمؤتمر المستشرقين بفاس سنة ١٩٣٣ كما أفردت حياته بالمؤلفات فى الايطالية •

(١٢) رينو : المصدر نفسه ص ٢١٢ •

المسلمين بالأندلس ، بل جيوشهم في بلاد المغرب أيضا ، اذ يحدثنا ابن خلدون في المقدمة (١٣) أنه « نظرا لضرب المصاف وراء العساكر ، وتأكده في قتال الكر والفر ، صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الأفرنج في جندهم ، واختصوا بذلك ، لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر » .

وكانت جيوش ملوك الأفرنج أيضا قد تنتظم جندا من المسلمين : اما عن طريق تلك الغلبة ، كالذى يروى من اتخاذ «رجار» ملك صقلية لجملة من العبيد المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، كما كان وزراؤه وحجابه الفتيان ، الذين له منهم جملة كبيرة ، هم أهل دولته (١٤) . واما على سبيل الاستعانة بهم كما يروى أن فردريك انثاني هو هنشتاوفن امبراطور الدولة الرومانية المقدسه الآتي ذكره ، قد اتخذ في جيشه الجند المسلمين (١٥) ، فكانت صفوف الجند في الغرب مجالا لالتقاء أهل الدينين ومخالطتهما ، سواء في ذلك الجيوش الاسلامية ، والجيوش المسيحية .

★★★

٦ ــ ونلمح في تاريخ القتال بين أهل الدينين ، ضربا من الدعاية السياسية التي تمس النواحي الدينية ، اذ يروى لنا تبادل المتقاتلين نشرات للدعاية الموهنة للقوة المعنوية ، وردودا على تلك النشرات للغرض عينه ، ففي حروب نقفور

---

(١٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٨ (ط . مصر . عبد الرحمن محمد) .

(١٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣٠٨ ط . مصر ــ

وتقرأ في تراث الاسلام : ج ١ ص ٨ من الترجمة العربية ما نصه : « ونرى عددا من حكام قشتالة يحيطون أنفسهم بعلماء المسلمين ، ويستخدمون مهندسين مسلمين ، ويستمعون الى موسيقيين مسلمين ، ويستمتعون بخير ما في الثقافة الاسلامية » . وفي ص ٢٣٢ منه ما نصه : « على أن المغيرين النورمانديين والصقليين قد أحاطوا العلوم العربية برعايتهم وأخذوا بالعادات الاسلامية أخذا شاملا » ، كما تقرأ فيه أيضا ج ١ ص ٥٤ : « ان ألفونس السادس كان بلاطه مسيحيا اسما ، وانه أعلن نفسه **امبراطور العقيدتين** » .

(١٥) روى ذلك الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على ترجمة كتابي : رينو وكللر ، وكرره في ثلاثة مواضع ص ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٧٤ . وقال الأستاذ ابرنست باركر في كتاب تراث الاسلام ص ١٣٥ ج ١ من الترجمة العربية الحديثة « ان فردريك الثاني استخدم جيشا عربيا ضد البابا . وفي ج ٢ من تراث الاسلام ص ٣٣ تعليقة ٢ نقلا عن مدام ديفونشير ذكر قلعة « لوسيرا التي اتخذ فيها فردريك الثاني مسلحة من الجنود العرب » .

فوقاس الثانى (١٦) امبراطور بيزنطة ، مع المسلمين ــ فى القرن الرابع الهجرى ــ أرسل الروم ألى جيش المسلمين قصيدة عربية فى ٥٤ بيتا (١٧) ، يفخر فيها نقفور بماضى انتصاراته ، ويعلن عزمه على طرد العرب الى الحجاز ، ويعرض لنقد الحكومة الاسلامية اذ ذاك ، بتغلب الديلم عليها ، الى نحو هذا من التوهين لنفسية غزاة المسلمين ·

وقد تولى الرد الاسلامى على هذه القصيدة ، الفقيه **الشافعى العظيم محمد بن على بن اسماعيل القفال الكبير الشاشى** ، اذ كان بين جنود الجيش الاسلامى ، فنظم قصيده فى (٤٧) بيتا ، فيها الى جانب السياسة امور دينيه عن خطأ المسيحيين فى اعتقادهم ، واضطراب أناجيلهم ، وما الى هذا (١٨) ·

فمثل هذه الدعايات التى يقضد بها الفت فى عضد الجيوش ، مما يقع بين المتقاتلين ، وليس من البعيد أن تكون قد تكررت على هذا الأسلوب الشعرى أو غيره بين المسيحيين والمسلمين فى الشرق والغرب ، ومست قضايا وأصولا دينية ،

---

(١٦) من الطريف ، ونحن بصدد الحديث عن الاتصال الدينى بين المسيحية والاسلام أن نذكر الرواية الاسلامية عن أصل هذا الامبراطور البيزنطى ، فقد جاء فى الكامل لابن الأثير · ج ٨ ص ٢٠٠ ط مصر · ما نصه : ــ « ولم يكن ــ أى نقفور ــ هذا نصرانى الأصل ، وانما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس يعرف بابن الفقاس ، تنصر وكان ابنه هذا شهما شجاعا حسن التدبير لما يتولاه ، فلما عظم أمره ، وقوى شأنه قتل الملك الذى كان قبله ، وملك الروم بعده ، وجعل نقفور همته قصد بلاد الاسلام والاستيلاء عليها » أ هـ بلفظه ·

ولست اقف هنا لتحقيق هذا ، وانما اكتفى بما فيه من اشارة الى المصادر المختلفة للاتصال بين الدينين ، والتمهيد القوى للتبادل الفكرى ·

وقد حكم نقفور هذا من سنة ٩٦٣ م ــ سنة ٩٦٩ م ·

(١٧) منها نسخة خطية فى جزء صغير بمكتبة فينا ، تزيد أبياتا عما أورده صاحب طبقات الشافعية ، ومعها رد الشيخ القفال كما ساقه صاحب الطبقات ·

(١٨) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٧٩ وما بعدها · ط مصر ــ وفى ص ١٨٤ من هذا الجزء : أن ابن حزم الظاهرى قد أجاب عن هذه القصيدة النقفورية بقصيدة أخرى فى (١٣٧) بيتا ساقها السبكى أيضا بعد ما قال « وكأنه ــ ابن حزم ــ لم يبلغه جواب القفال » · وسنشير الى هذا الرد فيما يلى لفقرة (٧) ·

اذ كانت الاعتبارات الدينية هي التي تسيطر على الحياة ، وتسود العواطف في تلك الأعصر ·

★★★

٧ ـ ونلاحظ أن تلك الحروب كانت تخلق ما نستطيع أن نسميه باصطلاح هذا العصر « نقطا دينية » في الأنحاء المسيحية كالنقط العسكرية للدول القوية ، اذ نجد الأخبار عن مسجد اسلامي بالقسطنطينية يظهر أن المسلمين قد أنشئوه فيها منذ عصر مبكر ، أيام ترددهم لغزوها في القرن الأول الهجري ، اذ يذكر ابن حزم في رده على قصيدة نقفور السابقة مسجدا قديما انشأه مسلمة بالقسطنطينية فيقول :

ومسلمة قد داسها بعد ذا كم
بجيش لهام كالليوث الضراغم
وأخدمكم بالذل مسجدنا الذى
بنى فيكموا في عصرنا المتقادم (١٩)

وغزو مسلمة بن عبد الملك هذا كان في أواخر القرن الأول الهجري (٩٨ هـ ـ ٧١٦ م) ·

فلعل هذا المسجد ظل قائما بالقسطنطينية حتى كانت عمارته والعناية به ، مما يدخل في تنظيم العلاقة بين المسلمين والروم الشرقيين اذ نقرأ أنه في سنة ٤٤٠ هـ ١٠٤٨ م بعث ملك الروم يطلب الهدنة من طغرلبك ، وهاداه وعمر مسجد القسطنطينية ، وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك (٢٠) ·

وفي سنة ٥٨٦ هـ ١١٩٠ م · وافى كتاب ملك الروم بالقسطنطينية يخبر بوصول المنبر من عند السلطان ، وكذلك الخطيب والمؤذنون والقراء ، وأن الخطبه أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله (٢١) ·

---

(١٩) السبكي : طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٨٥ ط · مصر ·

(٢٠) تقي الدين المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٢ ط · مصر سنة ١٩٣٤ ·

(٢١) المصدر السابق : ج ١ ص ١٠٤ ط · مصر ·

ويبدو أن هذه النقطة الاسلامية لم تكن مسجدا فحسب، بل كانت جالية اسلامية تنزل القسطنطينية قبل فتحها العثماني ببضعة قرون ، اذ تجد أنه فى سنة ٥٩٢ هـ ١١٩٥م ورد كتاب ملك الروم يتضمن أن كلمة الروم قد اجتمعت عليه ، وأنه أحسن الى المسلمين ، وأمرهم باقامة الجامع ، فأقيمت فيه يوم الجمعة الصلاة مع الخطبة ، وأنه غمر جانبا منه ، كان انهدم ، من ماله ، فتمكن من فى القسطنطينية من المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة بها (٢٢) ٠

هذا هو ما دعوته النقطة الدينية فى بلاد مسيحية ، وما رأينا أن تأمينه يدخل فى حساب العلاقات السياسية ، ومن المحتمل أن تكون قد وجدت نقط أخرى ، ومعاقل دينية من هذا القبيل فى غير القسطنطينية ٠ وكان لها نصيبها فى وصل ما بين الاسلام والمسيحية فى الغرب وتعريف أحدهما بصاحبه ٠

★★★

٨ ـ وتلك الصلات الحربية والسياسية تحوج الى تبادل الوفود بين الجيوش والحكومات لعقد الهدنة ، وتقرير الصلح ، وتوطيد العلاقات ، وفى هذه الوفود نرى نزوعا خاصا من المسلمين والمسيحيين ، الى اختيار رجال دينيين ؛ يصمدون للمناقشات والمجادلات الاعتقادية ، التى كانت تجرى عند التقابل ، حتى فى الحفل الرسمى الذى يقام لاستقبال السفير الوافد ، وشاهد هذا من الجانب الاسلامى ، ما نراه فى اختيار مثل القاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى (٤٠٣ هـ) للسفارة بين المسلمين والروم الشرقيين (٢٣) ٠ وفى الغرب نرى « أوتون » ملك جرمانيا فى القرن العاشر ، يعنى بأن يختار عالما لاهوتيا يعتمد عليه فى المناقشة الدينية مع المسلمين ليبعثه الى قرطبة ، فيختار

---

(٢٢) المصدر السابق : جـ ١ ص ١٢٩ ط ٠ مصر ٠

راهبا من رهبان دير جورز Gors بقرب ميتز ، اسمه « جان » عرف بضلاعته في اللاهوت ، وقد حاول في تلك البعثة أن يقنع الخليفة « الناصر » الأندلسى باعتناق المسيحية • كما تشير الى ذلك الرواية الأوربية (٢٣م) •

٩ ـ ومن آثار ذلك الاتصال المادى ان الاستعمار الاسلامى اذا ما انحسر عن الأقطار الغربية ، ترك فلولا بل جموعا تطويها اللهجة الغامرة من الغلبة السياسية والحربية ، فتليها فى المسيحية الغربية ، عناصر تلقيح ، وطرق تعريف بالاسلام ، وهكذا كان الأمر عندما استردت جزر البحر الأبيض من الاسلام ، كقبرص ، وأقريطش ، ورودس؛ وصقلية ، وغيرها من مناطق الاستعمار الاسلامية فى آوربا، فتنصر أهلها وبقوا مسلمين مغلوبين • عبيدا أو كالعبيد •

---

(٢٣) ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٧١ هـ • أنه : فيها ارسل عضد الدولة القاضي أبا بكر محمد بن الطيب الأشعرى المعروف بابن الباقلاني الى ملك الروم في جواب رسالة وردت منه •

والى القارىء بعض ما وصلنا من مناقشات القاضى لرجال المسيحية من الروم :

دخل القصر يوما فرأى عند الامبراطور بعض مطارنته ورهبانه ، فقال له مستهزئا به • كيف أنت وكيف الأهل والأولاد ؟ فتعجب منه الامبراطور ، وقال له : ذكر من أرسلك فى كتاب الرسالة ، أنك لسان الأمة ، ومتقدم على علماء الملة ، أما علمت أنا ننزه هؤلاء عن الأهل والأولاد !! • فقال القاضي أبو بكر أنتم لا تنزهون الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد ، وتنزهونهم فكان عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه وتعالى •

وقصد الامبراطور يوما توبيخه فقال له : أخبرنى عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ •• فقال له القاضى أبو بكر : هما اثنتان ، قيل فيهما ما قيل ، زوج نبينا ، ومريم بنت عمران ، فأما زوج نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها • وكل قد برأها الله مما رميت به •

وكان القاضى الباقلانى مبعوثا سياسيا ، سريع الخاطر لبقا ، رووا أنه فى هذه الرسالة عرف الامبراطور خبره ، ومحله من العلم وموضعه ، فاعتقد أن القاضى لن يكفر له اذا دخل عليه ، كما جرى رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يديه ، فاحتالوا لذلك بأن جعلوا الاستقبال فى حجرة ، لها باب لطيف ، لا يمكن أحدا أن يدخل منه الا راكعا ، وجعلوا السرير وراء هذا الباب ، ليدخل القاضي راكعا ، فيكون ذلك عوضا من تكفيره • فلما ذهب القاضى سار حتى وصل الى المكان ، فلما رآه فطن الى القصة ، فأدار ظهره ، وحنى رأسه راكعا ودخل من الباب ، وهو يمشى الى الخلف ، وقد استقبل الملك بظهره ، حتى صار بين يديه فرفع رأسه ونصب ظهره ، وأدار وجهه ، وكذلك كان سريع الخاطر دينيا وعمليا • رحمه الله •

ابن عساكر : تبيين كذب المفترى ٢١٨ ـ ٢١٩ ط دمشق •

(٢٣م) رينو : المصدر السابق ـ ص ١٧٧ من الترجمة العربية •

وها هو ذا الرحالة الاسلامى الكبير أبو الحسن محمد بن أحمد ابن جبير ، يحدثنا عن قصة لأحد فقهاء حاضرة جزيرة صقلية بعد استيلاء النورمنديين عليها ، فى معرض سوء حالهم الدينية اذ ذاك ، فيقول : « .. فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التى هى حضرة ملكهم الطاغية ، ويعرف بابن زرعة، ضغطته العمال بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام، والانغماس فى دين النصرانية، ومهر فى حفظ الانجيل ، ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى الأحكام النصرانية ، وربما طرأ حكم اسلامى فيستفتى ايضا فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، ويقع الوقوف عند فتياه فى كلا الحكمين » (٢٤) .

وستسمع فيما بعد ـ الفصل الثانى فقرة ٨ ـ أن راهبا كان مسلما ثم تنصر ، قد ساعد فى ترجمة القرآن الى اليونانية (٢٥) ، وأن رئيس حصن مستعمرة فراكسينت الاسلامية التى سبقت الاشارة اليها قد تنصر حين هزم ، وتنصر معه آخرون ، كما بقى بعض من معه مسلمين أرقاء فى تلك المنطقة (٢٦) .

وقد كان من آثار ذلك أن وجدنا أقليات اسلامية فى أنحاء مختلفة من أوربا ، وشهدت بذلك آثار غربية محفوظة، ففى فرنسا كان من المسلمين ، فى القرن الثالث عشر الميلادى، عدد يهتم به مجمع الأساقفة فى « طركونة » بأسبانيا سنة ١٢٣٩ م . فيصدر آمرا باجبارهم على اتخاذ زى خاص بهم (٢٦م) . كما كان منهم أرقاء مستعبدون ، يفرون من

---

(٢٤) رحلة ابن جبير : ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ ط . بمصر .

(٢٥م) الدرة النفيسة فى شرح حالة الكنيسة ، المترجم عن اليونانية من مختصر تاريخ استفانوس قوميطا ، المقتطف من تاريخ ملاتيوس مطران أثينا الكنايسى : ط . اورشليم سنة ١٨٦٧ م .

(٢٦) رينو : المصدر نفسه ـ ص ١٨٨ ـ ١٨٩ من الترجمة العربية .

(٢٦م) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ من الترجمة .

عذاب الاضطهاد الى المسيحية ، يعتنقونها ، فيعذبون ليحال بينهم وبين اعتناق المسيحية ، أو يستمر ارهاقهم بعد اعتناقها بأشد ما يمكن ، حتى أصدر البابا كليمنضوس الرابع سنه ١٢٦٦ م منشورا عنف به رئيس دير لتعذيبه رجلا مسلما غنيا كان قد تنصر ، فزعم هذا الرئيس أن تنصره غير حقيقي ، توصلا بذلك الى ضبط أملاكه وحرمان أولاده منها (٢٧) .

ويتحدث حتى اليوم عن أسر في جنوب فرنسا لا تزال تحمل اسم « سارازان » ومن بين رجالها من له شأن علمي (٢٧م) ، وما ذلك الا أثر لما كان من تنصر عدد كبير من المسلمين في فرنسا ، كما كان عدد الفرنسيين الذين اتخذوا الاسلام دينا أكبر ممن تنصر (٢٨) .

ويتصل بهذا ما يحدثنا به ياقوت في معجم البلدان عن وجود مسلمين في بلاد « هنجاريا » — المجر — التي يدعوها « الهنكر » (٢٩) في القرن الثالث عشر الميلادي .

---

(٢٧) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٧ — ٢٢٨ من الترجمة العربية .

(٢٧م) تعليق للأمير شكيب أرسلان على ترجمته لكتاب رينوص ٢٢٨ ، يذكر فيه وجود تلك الأسر في فرنسا وفي سويسرا أيضا ، ويسمى منها العالم الفيلسوف أبو زيد (Abauzil) المعاصر لفولتيرو روسو ، ونيوتن ، وصديقهم جميعا .

(٢٨) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٨ — ٢٢٩ من نص المؤلف .

(٢٩) في مادة باشغرد — ج ٢ معجم البلدان لياقوت يقول : « ... وأما أنا فانى وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغردية شقر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ، فسألت رجلا منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية ، في مملكة أمة من الافرنج يقال لهم « الهنكر » ونحن مسلمون رعية لملكهم ، في طرف بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكاد أن تكون بليدة ، الا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سورا خوفا من أن نعصى عليه ، ونحن في وسط بلاد النصرانية ، فشمالينا بلاد الصقالبة ، وقبلينا بلاد البابا ، يعنى رومية ، والبابا رئيس الافرنج ، هو عندهم نائب المسيح ، كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين ، ينفذ أمره في جميع ما يتعلق بالدين في جميعهم . قال : وفي غربينا الأندلس وفي شرقينا بلاد الروم ، قسطنطينية وأعمالها ، قال : ولساننا لسان الافرنج ، وزينا زيهم ونخدم معهم في الجندية ، ونغزو معهم كل طائفة لأنهم لا يقاتلون الا مخالفي الاسلام ، فسألته عن سبب اسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار — قلت =

١٠ ـ تلك مظاهر اتصال مادية ترجع ألى الحرب بين الشرق والغرب ، وما يتصل بها من وفادة وما أليها ٠

وثمت أعمال سلمية لها أهميتها في مثل تلك الصلات بين الدينين ، فرجال الحكم أنفسهم حين لا يحاربون ، تدفعهم مطالب السياسة الى توثيق الصلات بأسباب التودد المختلفة ، ومن بينها ما يتخطى حدود الاختلاف الديني، ويهيىء التفاهم القريب ، كالمصاهرة ، فنرى في الشرق الأمبراطور ـ كانتنا كوزينو ـ الذى سنعرف أنه ترهب وترجم القرآن ـ يصهر الى السلطان العثماني أورخان ، ويحمل اليه ابنته «تيودورة» التى تقيم على دينها في قصره (٣٠) ٠

ونرى في الغرب نفرا من أولى الأمر في الأندلس يتزوجون أميرات غربيات ، فقد تزوج عبد العزيز بن موسى ابن نصير أرملة الملك لذريق (٣١) ، كما تزوج زياد بن النابغة التميمي احدى بنات ملوك الأندلس (٣٢) ، وتزوج

= وهو يذكر فى صدر المادة خبر بعثة الخليفة المقتدر بالله الى ملك الصقالبة الذى كان قد أسلم هو وأهل بلاده ليفيض عليهم الخلع ويعلمهم الشرائع الاسلامية ـ وسكنوا بيننا وتلطفوا فى تعريفنا » الخ ما يذكره من زيهم وعاداتهم وبعد بلادهم ص ٣٧ و ٣٩ جـ ٢ ط ٠ مصر ٠

هذا والاسلام اليوم فى المجر قليل مستضعف ، لا يكاد يوجد الا بين نفر من متخلفى الألبانيين ونحوهم فى تلك البلاد ٠

(٣٠) روبرتسون وليم (R. Witiam) مقدمة تاريخ شارلكان ـ الترجمة العربية ص ٣٧٤ ٠

(٣١) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٨ ط مصر ٠ ويقال ان عبد العزيز سماها زهرة بنت عيسى يريد أنها وردة المسيحيين ٠ وفى هذا الزواج نفسه ظاهرة واضحة للتأثير ، فقد ذكر ابن الأثير أن زوجة عبد العزيز حظيت عنده ، وغلبت عليه فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له اذا دخلوا عليه ، كما كان يفعل زوجها رذريق ٠ فقال لها ان ذلك ليس فى ديننا ، فلم تزل به حتى أمر ففتح باب قصير لمجلسه الذى كان يجلس فيه ، فكان أحدهم اذا دخل منه طاطأ راسه فيصير كالراكع فرضيت به ، وصار كالسجود عندها ٠ فقالت له الآن لحقت بالملوك ، وبقى أن أعمل لك تاجا مما عندى من الذهب واللؤلؤ ، فأبى فلم تزل به حتى فعل ، فانكشف ذلك للمسلمين ، فقيل تنصر ، وفطنوا للباب ، فثاروا عليه فقتلوه ٠

(٣٢) أخبار مجموعة ط مدريد ص ٢٠ ٠

عثمان بن أبى نسعة ابنة دوق أكيتانه (٣٣) وغيرهم • بل ان العناد السياسى قد دفع ببعض أمراء المسلمين المشاغبين الى أن يصهر الى بعض ملوك الفرنجة ، ويزف اليه ابنته ، كما فعل موسى بن زياد والى سرقسطة ، أيام محمد بن عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس (٢٣٨ — ٢٧٣) اذ عزله الأمير فعصى عليه ، وكان أن زوج ابنته من أمير نفارة المسمى غرسية (٣٤) •

فكان فى هذه الصلات وأشباهها مما كثر ولابد فى عمل الأفراد ، ما يعرف كل دين بصاحبه فى الغرب تعريفا قويا •

١١ — واذا سعى رجال السياسية بعضهم الى بعض ، فقد سعى مثل هذا السعى رجال الدينين أيضا فى سلم أو ما يشبهه حينا، وفى حرب أو ما يشبهه حينا بغية نشر الدين، وكسب الأتباع ، وعندنا من مثل هذا الاتصال بين رجال الدينين فى الشرق ، وتناقشهما الدينى مالا نحب أن نعرض لتفصيله ، وان كنا لا ننسى أن لهذا الاتصال الشرقى ، أثره فى الغرب ، اذ ظلت الكنيستان الشرقية والغربيه متحدتين الى القرن العاشر الميلادى ، كما لم ينقطع التعاون بينهما بعد الانفصال على رد الهجمات الاسلامية الاعتقادية وغير الاعتقادية •

وفى الغرب نفسه نجد ذلك السعى الى التبشير بين المسلمين ، فسان فرنشسكو رأس الرهبنة الفرنشيسكانية — ق ١٣ م — يرحل الى الشرق من أجل ذلك الغرض ، ويتقدم الى معسكر الملك الكامل الأيوبى بدمياط سنة ١٢١٦ م ليدعوه الى اعتناق المسيحية (٣٥) • و « ريموند لول » تضطرم فى نفسه رغبة عنيفة حادة للتبشير بالمسيحية بين

(٣٣ ، ٣٤) محمد دياب بله : تاريخ العرب فى اسبانيا ص ٣٩ ، ١٧٦ نقلا عن مصادر غربية •

(٣٥) الكونت هنرى دى كاسترو : الاسلام • خواطر وسوانح ص ١٨٦ — ١٨٧ من الترجمة العربية •

المسلمين ، ويرى ذلك أعظم غاية في حياته (٣٦) • ونرى « بابات » رومية أنفسهم يشاوكون في هذه الدعوة بالمكاتبة ، فيرسل البابا بيو الثانى Pio 2 الى اسلطان محمد الفاتح عقب سقوط القسطنطينية فى يده رسالة يدعـوه فيهـا الى اعتناق المسيحية ، ويناقش فيها تفاصيل في الدينين ، الاسلام والمسيحية (٣٧) •

فهذه أمثلة تصـور لنـا الرغبـة القـوية فى الدعاية للمسيحية ، تلك الدعاية التى تقوم بلا شك على معرفة غير قليلة بالاسلام يحتاج اليها المتصدى للمناقشة والمفاضلة •

١٢ ــ ووراء هذا الاتصال حربيه وسلميه ، تلك الحياة المدنية العادية ، التى لن تخضعها للعزلة المواضعات المتخالفة من أديان ولغات وغيرها ، مهما قويت محادتها ، بل تسيرها الروابط الاجتماعية ، والمصالح الاقتصادية القاهرة ، وعلى هذا الأساس كانت للمسلمين الشرقيين والغربيين رحلاتهـم الاقتصادية في قلب أوربا ، وأقصى شـمالها وغربها ، مما كانت تطول مدته سنين بحكم صعوبة طرق الاتصال والنقل وبطئها •

ونقرأ طرفا من وصف تلك الأسفار فى كتب الجغرافيا العربية ، وكتب الرحلات (٣٨) • ولهذه السياحات اثرها فى صلة الشعوب والأديان ، على نحو ما نرى فعله اليوم مثلا فى نشر تجار المسلمين لدينهم فى قلب أفريقا ، فهل تدون رحلاتهم القديمة في قلب أوربا غير ذات اثر فى التعريف بالاسلام !!!

وكذلك كان يرحل تجار الغرب الى الشرق بحكم غناه ورقيه ، وقد كثرت تلك الرحلات ، واتصلت بعد ما مهدت

---

(٣٦) فيورنتينو F.orentno : مختصر تاريخ الفلسـفة ج ١ ص ٣٠٥ والفريد وليام A. Yiullaume تراث الاسلام ص ١٧٢ •

(٣٧) الكونت هنرى دى كاستري : الاسلام ص ١٦٦ ــ ١٦٧ من الترجمة العربية •

(٣٨) أمين الخولى : رسالة فى السياحات الاسلامية ــ مخطوطة •

الحروب الصليبية منذ أول عهدها للاختلاط القوى ، وزادت التعرف بينهما ٠

والى جانب ذلك رحلات غير التجار من الغربيين لأغراض مختلفة ، من نزهة وتطبب ، واستفادة ، ووصفهم لما يشهدونه فى الاقطار الاسلاميه فى كتب رحلاتهم واحاديثهم، مما كان قد ينطوى فى تلك العصور على غير قليل من الأخطاء فى التعريف بالشرق والاسلام ، لكنه عامل له قيمته فى وصل ما بين الدينين على كل حال ٠

فتتعاون تلك العوامل الجمة على تعريف الغرب بالكثير من آراء الاسلام وعقائده ، تعريفا لابد أن يكون له آثره بفعل النواميس الكونية فى حياة الأفكار والآراء والعقائد ، من حيث تأثير بعضها فى بعض ٠

الفصل الثانى

(الاتصال المعنوى بين الدينين)

١ ــ في الوقت الذى كانت تجنح فيه الأمة الأسلامية(١) الى الاستقرار لتقوم بنصيبها فى خدمة المدنية الانسانية شرقا وغربا ؛ خلال المدة من القرن الثامن الى الثالث عشر الميلادى ، فى ذلك الوقت كانت الحياة الاجتماعية والعقلية بل الدينية في الغرب غافلة هامدة •

كان فيه ما هو صورة أمة أو حكومة ، لكن لا أمة ولا حكومة(٢) : الأشراف فيه جهلاء ، أميون ، حتى ليوقعون الوثائق والقوانين المهمة ، بصورة صليب ، هى كل مايعرفون من الامضاء ؛ وحتى ليرى فى القرن التاسع الميلادى ، رئيس المحكمة ، وأعظم قضاة الدولة أميا لا يكتب؛

---

(١) آثرت أن أصفها « بالاسلامية » لا « بالعربية » ، لأن الوصف الأول هو الصحيح في التاريخ ، اذ لا يصدق وصفها بالعربية عهدا طويلا ، فقد كانت بعد يسير من ظهور الاسلام ، بفضل انتشاره وامتداد حركة الفتح ، مؤلفة من عناصر مختلفة ليس العرب أكثرها •

(٢) م• جيزو M. Juzot : التاريخ العام للحضارة فى آوربا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ••• وهو المترجم الى العربية تحت عنوان التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأورباوية ، على يد الخواجة حنين نعمة الله خوري والمطبوع بالاسكندرية سنة ١٨٧٧ م ــ ١٢٩٤ هـ •

وجوستاف لوبون : تاريخ حضارة العرب ص ٦١٤ •

وروبرتسون وليم : كتاب تاريخ شارلكان ، المقدمة ص ٣١ ، ٣٢ ، ٢١٦ من الترجمة العربية •

بل في القرن الرابع عشر ، كان رئيس الجيوش الفرنسية ، واعظم رجال الدوله ، واول أكابر عصره اميا(٣) •

وكان الدين المسيحى قد صار الى بدع بربرية وأكثر رجاله جهلة ، لا يستطيعون التوقيع على القوانين التى تصدرها المجامع • والقلة المتعلمة منهم كانوا يمضون وقتهم فى الأديرة ، يمحون المؤلفات القديمة ليحصلوا على الاوراق اللازمة لنسخ الكتابات الدينية (٤) •

٢ ـ فى هذه الحال الآنف شرحها ، بدأ الاتصال المعنوى بين الاسلام والمسيحية ، ذلك الاتصال الذى لانريد الافاضة فى وصفه ، بل نناله بقدر ما نبين طرائق نقل المعارف الدينية وأثرها فى الحياة المسيحية ، وفى العقلية المسيحيه ، وصلة العقلية بالحياة الدينية ، وما الى هذا مما هو طريق لبيان ما قصدنا اليه من صلة بين الدينين •

واذا كان يستكثر اطلاق القول بأستاذية العرب التامة للغرب فى كل شىء وأن كل العلماء المعروفين من جميع الأمم الى القرن الثالث عشر أو الخامس عشر انما كان كل عملهم هو تقليد العرب (٥) ، فلا مفر من القول بأن الثقافة الاسلامية قامت بدور المرشد الأمين ، وأمدت متعلمي القرون الوسطى بمادة كثيرة لدراستهم (٦) •

---

(٣) المصادر السابقة نفسها •

(٤) المصادر السابقة نفسها •

(٥) فيبر (Weper) : كتاب تاريخ العالم (Weltgeschichte) ج١ فقرة ٤٤٤ ص ٨٠٦ •

وروبرتسون وليم : المصدر السابق ص ٢٩٩ •

وجوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦١٨ •

(٦) ر• وليم : المصدر السابق ص ٢٩٩ •

وجويدو دى روجيرو : تاريخ الفلسفة المسيحية ج ٣ ص ٥٠ •

والفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٤٣ من الأصل وص ٢٣٤. ج ١ من الترجمة العربية التى نشرتها حديثا لهذا الكتاب « لجنة الجامعيين لنشر العلم » •

٣ ـ وأول ما بدأ ذلك الاتصال ، كان بالتعلم من مسلمي الشرق والغرب الذين كانت بلادهم معاهد يتنفف فيها الخاص والعام ، ومرجع المستفيدين من الغربيين ، الذين لهم عناية بالعلم ، وقد كانوا بادىء الأمر قليلين ، ثم تكاثروا بانتشار المعارف بينهم •

واذا كان قد يشك في أن البابا سلفستر الثاني نفسه « سنة ٩٩٩ م » ، قد تعلم على العرب في بلادهم ، فلن يشك أبدا في أن كثيرين غيره قد تعلموا في هذه البلاد •

ثم تلا هذا الدور دور محاولة نقل المعارف الى انحاء أوربا فكان الناقلون لهذه المعارف العجيبة ، المدهشة أبناء عصرهم ، يتهمون بالسحر (٧) •

ونمت حركة هذا النقل فيما بعد حتى ، لنرى قسطنطين الأفريقي الملقب بمعلم الشرق والغرب، في القرن الحادى عشر الميلادى ، ذا نشاط عجيب في ترجمة العلوم عن العربية(٨) •

ويطرد هذا النماء فنرى في القرن الثاني عشر مثل يوحنا بن داود الأندلسي اليهودى ، وجيرار الكريموني • الذى ترجم وحده ما لا يقل عن (٧٤) أربعة وسبعين كتابا علميا ما بين صغير وكبير (٩) •

وأفلاطون النيفولى يترجم المعارف الاسلامية عن العربية والعبرية • وآخرون غيرهم •

بل نرى للترجمة دوائر منظمة يؤيدها ملوك شهيرون في نواح مختلفة من أوربا ، ففى صقلية ، ونابلى وطليطلة ،

---

(٧) سديو : خلاصة تاريخ العرب ص ١٦٤ •
الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٢٠٩ •
(٨) ارتورو كاستيليونى (Arturo Castilioni) الأستاذ بجامعة يادوفا كاتب مادة قسطنطين الافريقى فى دائرة المعارف الايطالية الجديدة •
(٩) كارلو الفونسو نللينو (Cairo Alphonso Nallino) الأستاذ بجامعة يادوفا : وعضو المجمع الملكى للغة العربية : كاتب مادة ـ جيراردو ـ من دائرة المعارف الايطالية الجديدة • (Gherardo)

وقشتالة ، وفرنسا ، تقام تلك المعاهد ، ونرى ملوكا أقوياء ، يبذلون جاههم ومالهم لحماية تلك الحركة وزيادة نشاطها ، على نحو ما كان فى قصور ملوك الشرق المسلمين .

ومن أكبر هؤلاء الملوك الغربيين وأجلهم ، فردريك الثانى هو هنشتاوفن الألمانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وحاكم صقلية . وألفونس الحكيم القشتالى ، فتحت اشرافهما اشتغل مترجمون من أنحاء مختلفة فى أوربا . وكان « سكوت ميخائيل الاسكتلندى » ، فى حاشية فردريك المذكور ، يشرف على الترجمة الجديدة لأرسطو ، وتفاسير فلسفته الإسلامية من اللغة العربية ، الى اللغة اللاتينية (١٠) مع آخرين من جنسيات مختلفة ، كما كان الحال كذلك تحت اشراف ألفونس الحكيم فى القرن الثالث عشر نفسه .

وأعاد الغرب تاريخ الملوك العلماء فى الأمة الاسلامية . فكان ألفونس الحكيم يصحح بنفسه ما يترجم الى اللغة القشتالية (١١) ، ومنفريد بن فردريك هوهنشتاوفن يترجم بنفسه (١٢) .

ولا نملى للقلم فى وصف حركة هذا النقل لئلا نبعد عن موضوعنا ، فنكتفى بأن نقول فى اجمال ان الثقافة الاسلامية كانت منتشرة فى جميع أنحاء أوربا فى القرن الثالث عشر الميلادى (١٣) .

---

(١٠) دائرة المعارف الانجليزية مادة سكوت . (Scot)

(١١) ماريو كاسيلا (Mario Casila) الأستاذ بجامعة فيرنسة الايطالية كاتب مادة « الفونسو الحكيم » فى دائرة المعارف الايطالية الجديدة .

(١٢) مادة منفريد من الدائرة الايطالية الجديدة .

(١٣) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٧ ـ وان حركة الترجمة عن العربية فى اوربا خلال القرون الوسطى لتستحق الدراسة المفردة وارجو ان أصل من ذلك الى ما يكشف جليا عن هذا الجانب من صلة الشرق بالغرب ، كما اهيب بالباحثين أن يعنوا بالنواحى المختلفة من انتشار الثقافة الشرقية بعامة ، والاسلامية بخاصة فى أوربا لهذا العهد ، استيفاء لتاريخنا ، وها هم أولاء الباحثون الأوربيون قد بدءوا يتولون ذلك بشىء من الانصاف وحب الحقيقة .

وانمـا يجب أن نتولى بالتفصيل نقطـا ثلاثا ، تمس موضوعنا مسا قويا تلك هى :

(١) معرفة الأوربيين للغـة العربية ، لغـة المعـارف الاسلامية والدين الاسلامى ٠

(٢) الاتصال الفلسفى بين أوربا والأمم الاسـلامية ، لما كان هناك من صلة قوية بين الفلسفة والحياة الدينية فى تلك الأزمنة ٠

(٣) معـــرفة الاوربيين للعلوم الدينية الاســلامية بخاصة ٠

١ ـ اللغة العربية فى أوربا

٤ ـ لا شــك أن اللغة العربية من أقرب الطرق لمعرفة الشئون الاسلامية علمية وغيرها ، فلا غرو اذا كان انتشـار اللغة العربية فى أوربا مظهرا له قيمته فى درجة الاتصال بين الاسلام والمسيحية العربية ٠

ولقد رأينا فى الفقرات السابقة ، أن الأمم المجاورة للدول الاسلامية تكاتبها بالعربية شـعرا ، على مثل ما فى قصيدة نقفور « فصل ١ ـ فقرة ٧ » ٠ ونرى الأسـبانيين جيران المســلمين فى الغرب ، قد يتخذون كتابا من العرب يكتبون عنهم بالعربية الى المسلمين فى الأندلس والمغرب(١٤) وكما نجد الاتصال الحربى بين الطرفين يدفع الى تعلم اللغة العربية ، فيبـــدأ الفرنسيون بتعلم العربية فى الحـروب

---

(١٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٢٩ ـ طبعة بولاق اذ يروى أن الأذفونش كتب الى أبى يوسف يعقوب صاحب المغرب الذى كان قد جاء الى الأندلس ، رسالة من انشاء وزير له يعرف بابن الفجار ، ونصها :

« باسمك اللهم فاطر السموات والأرض صلى الله على السيد المسيح ، روح الله وكلمته ، الرسول الفصيح : أما بعد فانه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ، ولا ذى عقل لازب ، انك امير الملة الحنيفية ، كما انى امير الملة النصرانية ، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل واهمال الرعية ، واخلادهم الى الراحة ، وانا اسومهم بحكم =

الصليبية ، ويدرسونها في أسبانيا على أهلها (١٥) • فكذلك نرى أن المناطق التي امتد فيها نفوذ العرب وتوطنهم « راجع الفصل الأول فقرتا ١ ، ٢ » كان أهلها يتعلمون العربيه بحكم هذا الاتصال ، اذ كانت تؤخذ منهم الرهائن الى البلاد العربية كما تؤخذ منهم الأسرى ، فيتعلم كل هؤلاء العربية من أهلها ، ويعودون بها الى بلادهم ، كما يتعلمها من قد يعتنق الاسلام من أوربى هذه البلاد ، وكذلك يظل يتكلمها الى حين من يبقى من المسلمين فى أوربا أسيرا أو رقيقا ، أو يتنصر فى بعض تلك المناطق (١٦) •

وحينما قويت حركة التعلم والنقل العلمى التى سبقت الاشارة اليها » كان المتعلمون من الأوربيين فى البلاد الاسلامية يتعلمون العربية ، كما كان يجيدها المترجمون للعلوم الاسلامية ، ويعرفها دارسو تلك العلوم فى الغرب ، ومن هنا نسمع منذ عهد مبكر أن رجالا من ذوى الشأن الدينى أو العلمى أو السياسى ، كانوا يعرفون العربية ،

= القهر وخلاء الديار ، وأسبى الذرارى وأمثل بالرجال ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم اذا امكنتك يد القدرة • وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، لا تستطيعون دفاعا ، ولا تملكون امتناعا ، وقد حكي لى عنك ، انك أخذت فى الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال وتماطل نفسك عاما بعد عام ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا أدرى أكان الجبن قد أبطأ بك ، أم التكذيب بما وعد ربك • ثم قيل لى انك لا تجد الى جواز البحر سبيلا ، لعله لا يجوز لك التقحم معها ، وهأنا أقول لك ما فيه الراحة لك ، وأعتذر لك وعنك ، على أن تفى بالعهود والمواثيق ، والاستكثار من الرهاب (جمع رهب : النصل الرقيق) ، وترسل الى جملة من عبيدك بالمراكب والشوانى ، والطرائد والمسطحات ، وأجوز بحملتى اليك ، فأقاتلك فى أعز الأماكن لديك ، فان كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت اليك ، وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وان كنت لى كانت يدى العليا عليك ، واستحقيت امارة الملتين . والحكم على البرين ، والله تعالى يوفق للسعادة ، ويسهل الارادة ، لا رب غيره ، ولا خير الا خيره ان شاء الله تعالى » •

وقد سقت للقارىء الكتاب كله ليرى فيه شاهدا لقوة صلة أهل ذلك البلاط الافرنجى بالاسلام ، ومعرفة الكثير عن عقائده ، الى جانب ما استشهدنا عليه من مكاتبة الفرنج لجيرانهم المسلمين بالعربية •

(١٥) رينو : المصدر السابق ص ٢٣٢ من الترجمة العربية •

(١٦) رينو : المصدر نفسه ص ٣٣ من الترجمة العربية •

فمثلا نرى القسيس هرتموت Hert mot رئيس دير القديس جالو بفرنسا في اواخر القرن التاسع الميلادي كان يعرف العربية والعبرية (١٧) ، والبابا سلفستر الثاني كان يجيد العربية(١٨) ، والفيلسوف الشهير البرت الكبير كان يعرفها، كما كان يتكلمها ملوك أوربيون كفريدريك الثاني ،ورجار ملك صقلية ، وغيرهم .

وما نريد أن نحصى متكلمي العربية من ذوى الشأن فى أوربا ، ملوك ، وعلماء ، ورجال دين ، فهذا ما لا حاجة بنا اليه ولا يد لنا به . وانما نكتفى فى الدلالة على درجة انتشار العربية فى أوربا ، خلال القرون الوسطى ، بما يقوله ، «روجر باكون» فى القرن الثالث عشر : «ان الفلسفة مأخوذة عن العرب فلا تفهم كما يجب الا اذا عرفت اللغة التى أخذت منها (١٩) ، والعبرية واليونانية لازمتان لفهم الكتب المقدسة ، وفلسفة أرسطو ، فالعربية لازمة لفهم ابن سينا وابن رشد » .

وكان باكون هذا يلوم الذين درسوا الفلسفة من المترجمات دون الأصول ، لا يستثنى من ذلك اللوم حتى القديس توما الأكوينى نفسه (٢٠) .

فهذا كاف للقول فى طمأنينة ، بأن اللغة العربية كانت منتشرة فى البيئات المثقفة فى أوربا ، خلال تلك العصور .

***

٥ ــ وقد قامت فى أوربا حركة مقاومة للاسلام ، كانت حربا صليبية معنوية ، تصدت لمقاومة الاسلام بأساليب علمية ، من بينها تعلم العربية ، فكان « ريموند لول » ، الذى يحسن اللغة العربية، يجعل من الدراسات الشرقية أداة

---

(١٧) رينو : المصدر السابق . ص ٢٣٢ من الترجمة العربية .

(١٨) الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية ص ٢٠٩ .

(١٩) الفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٤٤ من الأصل ، ص ٢٣٥ ج ١ من الترجمة العربية .

(٢٠) فيوريتتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤ .

حرب صليبية هادئة ، سلاحها روحي خالص ، فيؤسس سنة ١٢٧٦ م كلية للرهبان في ميرامار Miramar لدراسة اللغة العربيـــة (٢١) ٠ كما أسست أول مدرســـة عرفتها أوربا للدراسات الشرقية في طليطلة على يد المبشرين ، وفيها كانت تعلم العربية (٢٢) ، كما كانت تعلم العبرية وغيرهـــا من مواد تعين على اخراج مبشرين ضد الاسلام (٢٣) ٠ ولعله لهذا الغرض من الحرب المعنوية قد تقرر ايجاد كراس لدراسة اللغـــات الشرقية من عربية وغيرهـــا في جامعات باريس ، ولوفـــان ، وســـــلمنقة ، في أوائل القـــرن الـــرابع عشر الميلادى (٢٤) ٠

فهـــذه الحركات الايجابية والسلبية في دراســـة اللغة العربية ، أعنى تعلمها لاقتباس المعـــارف الاســـلامية ، أو لمحاربة الاسلام والتبشير بالمسيحية ، كانت هـــذه الحركات كلها وصلا معنويا واضحا للغرب بالشؤون الاسلامية(٢٥) ٠

★★★

٦ ـ واذا ما تحدثنـــا عن اللغة العربية بأوربا لذلك العهد ، وأنها سبيل الاتصال بالثقافة الاسلامية ، فانه ليجب أن نذكر لغة أخرى سامية ، هى اللغة العبرية ، التى كانت شقيقة العربية تعاونا ، كما هى شقيقتها نسبا ، فعملت على حفظ الذخائر العلمية للثقافة الاسلامية ، باشتراك اليهود فى الميدان العقلى جنبا الى جنب مع المسلمين ، حين اطمأنوا

---

(٢١) ايرنست باركر : تراث الاسلام ص ٦٥ من الأصل ، و ١٢٤ ـ ١٢٥ ج ١ من الترجمة العربية ٠

(٢٢) الفرد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٧٢ من الأصل ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ج ١ من الترجمة العربية ٠

(٢٣) المصدر السابق نفسه ٠

(٢٤) ايرنست باركر : كتاب تراث الاسلام ص ٦٤ من الأصل ، ج ١ ص ١٢٥ من الترجمة العربية ٠

(٢٥) لم أر الاطالة بالاشارة الى ما كان من صلة قوية للغرب باللغة العربية وآدابها ، تلك الصلة التى تركت أثرها فى تطور الفنون الأوربية فى العصور الحديثة مما تجد غير قليل عنه فى فصل « الأدب » من كتاب تراث الاسلام : وكتاب فيكتور هيجو ، علم الأدب عند الفرنج والعرب ، للمقدسى وغيرها ٠

فى ظلال تلك الحضارة ـ ولا سيما فى أسبانيا ـ ، فكانت لهم فلسفة اسلامية العناصر عربية النصوص ، وان كتبت حينا باللغة أو الحروف العبرية (٢٦) ٠

وقد كان لفلسفة اليهود المذكورة أثر عظيم على الفلاسفة الغربيين فى العصور الوسطى (٢٧) ٠ كما ان اليهود قد حفظوا لأوربا الثقافة الاسلامية بترجمتها الى العبرية ، وكثيرا ما كانت الترجمة منها الى اللاتينية (٢٨) ، حتى لقد يضيع الأصل العربى بعض الأحيان ، ولا يبقى الا الترجمة العبرية فقط (٢٩) ، كما ترجمت اليهود بأنفسهم من العربية الى غير العبرية من اللغات الأوربية كالاسبانية مثلا (٣٠) ٠

ولقد نقل اليهود الثقافة الاسلامية نقلا فعليا الى أوربا ، حين هاجروا من اسبانيا الى الشمال ، لأسباب سياسية أو اجتماعية مختلفة ، ولا سيما هجرتهم الى جنوبى فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى(٣١) ٠

وكانت هذه العبرية من اللغات التى شاع تعلمها فى الغرب حينما استيقظت الأفكار ، وزعماء رجال الاصلاح كانوا يعرفونها « كهس » ولوثر وغيرهما (٣٢) ٠

٢ ـ الاتصال الفلسفى بين الغرب والأمم الاسلامية

٧ ـ الفلسفة بفطرتها صورة واضحة للاتجاه الفكرى ، دينى وغير دينى ، والفلسفة فى تلك العصور الوسطى كانت

---

(٢٦) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة ابن ميمون ـ وجورج بور فى كتاب تاريخ الأديان ج ٢ ص ٣٩٨ ٠ من الترجمة الايطالية ٠

(٢٧) المصدران السابقان ٠

(٢٨) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٥٤ ٠

(٢٩) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة فارابى ٠

(٣٠) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة ابن أبى الرجال ٠

(٣١) تعليق رقم ١ على هامش ص ١٧٤ ج ١ من الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية ٠

أشد عناية بالجانب اللاهوتى ـ ميتا فيزيقا ـ • ونستطيع القول بأن فلسفة تلك العصور الوسطى كانت أسلاميه القيادة ، فلم يلبث الغربيون بعد ما ذكرنا من اتصالهم بالاسلام ، أن عرفوا ودرسوا فلاسفة الاسلام جميعا من شرقيين وغربيين : كالكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، وغيرهم (٣٣) •

ومن المهم أن تلحظ سرعة اتصال الغرب بمن كان من هؤلاء المفكرين فى أقصى الشرق ، فالغزالى المتوفى سنه ١١١١ م قد ترجم فى السنين الأولى من القرن الثانى عشر ـ حوالى نصفه (٣٤) ـ الى اللاتينية •

وهكذا ظهر التأثر بهؤلاء الفلاسفة المسلمين فى تفكير المفكرين الغربيين فى أقصى أنحاء أوربا ، فكان يوحنا دنس سكوت الاسكتلاندى ، ق ١٣ ـ ١٤ يستوحى تأثير الارسطالية الاسلامية ، وبخاصة من ابن سينا (٣٥) ، كما يتأثر بابن سينا نفسه فى ألمانيا الفيلسوف ايكهارت(٣٦) •

واسكندر الهاليسى الذى درس وعلم فى باريس ، يعتمد على الشروح العربية لابن سينا ، وابن رشد (٣٧) • وألبرت الكبير يتأثر بابن سينا ، حتى ليقول رينان ، انه مدين بكل شىء لابن سينا ، كما أن القديس توما الأكوينى فى ايطاليا

---

(٣٢) نقرأ فى كتاب قصة لوثر المطبوع في فالته سنة ١٨٤٠ ما نصه « ••• وبناء على ذلك فوض لراهب من الدومينيقيين اسمه « هكستراثن » ، أمر سلطانى بأن يبيد ويحرق جميع ما يطلع عليه ويجده من الكتب العبرانية ، وقرر بعض علماء الكلام بمجلس المشورة فى باريس أنه ما دام الناس يرخص لهم فى تعلم اللغتين اليونانية والعبرانية ، فلا أمل يبقاء الدين » ـ ص ١٣ ، ١٤ من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية •

(٣٣) الفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٥١ ، ص ٢٥٤ ، من الأصل ج ١ ص ٢٥٣ ، ص ٢٣٩ من الترجمة العربية •

(٣٤) فيورنتينيو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٠ •
الفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٤٦ من الأصل ، ص ٢٣٩ ج ١ من الترجمة العربية •

(٣٥) جورج مور : تاريخ الأديان • الترجمة الايطالية ج ٢ ص ٣٠٠ •

(٣٦) جورج مور : تاريخ الأديان • الترجمة الايطالية ج ٢ ص ٣٠٥ •
واقرأ شيئا عن ايكهارت هذا فى هامش الفصل الثالث بعد •

(٣٧) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٨ •

مدين كذلك لابن رشد (٣٨) وهو في الوقت نفسه ممن تاثر بالغزالى (٣٩) .

★★★

وعلى غرار هذا اثرت الحركة الاسلامية في مقاومة الفلسفة على متيلتها في الغرب ، وترك طابع الغزالى العقلى والدينى . اثرا على الباحثين النصارى من اللحظة الاولى ، التى امكن لكتاباته فيها ان تقرا ، ولا يزالون يمنحونها دراسة دقيقة (٤٠) ، واستعمل المسيحيون في كثير من رسائلهم العلمية براهين الغزالى على مسائل لاهوتية (٤١) .

وكذلك تأثرت الحركة الصوفية في أوربا بعناصر اسلامية (٤٢) . ولسنا نطيل هنا فنتولى شرح شيء من ذلك في تفصيل ، بل حسبنا أن نؤيد دعوى الصلة والتأثر ، متوخين الرجوع الى عبارات العلماء الغربيين ، تمهيدا لما سنشرحه من نقط التأثر الخاصة بموضوع الاصلاح الدينى المسيحى فيما يلى ، محددين تلك المسائل هناك :

٣ ـ معرفة الأوربيين بالعلوم الدينية الاسلامية

٨ ـ ان ما أسلفناه من أمر انتشار العربية في أوربا ، وأخذ الفلسفة والعلم عن مصادر اسلامية ، ليؤهل في

---

(٣٨) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦١٨ .

(٣٩) أ . جيوم : المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل . ج ١ ص ٣٠٣ ، من الترجمة العربية .

(٤٠ ، ٤١) أ . جيوم : المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل ـ ج ١ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ من الترجمة العربية .

(٤٢) جـ . مور : تاريخ الأديان ـ ترجمة ايطالية ـ ج ٢ صفحات ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ ـ وواضح أننا لا نقصد هنا الى دعوى أن للعرب أو المسلمين فلسفة خاصة لها شخصيتها المستقلة أولا ، مما قد يختلف الرأى فيه ، وانما نقصد الى بيان الاتصال العقلى والاستفادة مما كان العرب يقومون اذ ذاك على رعايته من علم وفلسفة . لنمهد ببيان هذا الاتصال طريق الانتقال وتسرب الأفكار من البيئات الاسلامية الى البيئات الاصلاحية ، على ما سنتولاه تفصيلا فيما بعد . وليس هناك من يشاحنا في هذا القدر حتى أقسى المتطرفين فى انكار ما للعرب من فلسفة خاصة ، أو زيادة أكسبوها للمعرفة الانسانية . فان لهم على أى فرض تلوينا اسلاميا ، واتجاها فى تطبيق الفلسفة على الاسلام أو التوفيق بينهما ، لن ينكرا عليهما .

غير شك للاتصال بالمعارف الدينية الاسلامية ، ولا سيما في تلك الأعصر التي كان الطابع الديني يسود الحياة فيها ، بل كان أبرز ما يهيمن عليها .

على أنا نملك فوق ذلك أخبارا عن محاولات ايجابية في أوربا للاتصال بالمعارف الدينية الاسلامية ، اتصالا خاصا ومباشرا ، ونقلها الى الغرب ، تعريفا له بها ، لأغراض مختلفة .

ففي منتصف القرن الثاني عشر الميلادى ، ترجم القرآن الى اللاتينية ، رغبة في نقدة ، ومناقشته ، اذ أن بطرس الفينرايلي Pietro il Vinrapily الذى كان رئيس دير كولونيا بفرنسا منذ سنة ١١٢٢ م قد دعا الى ذلك ، فقام بتلك الترجمة ، روبرت الراتيني Roberto deretine ، وهيرمان الفينرايلي Herman de Dalmatie ، وتمت الترجمة في سنه ١١٤٣ م ، وهي الترجمة التي طبعت فيما بعد بأربعة قرون في مدينة بازل « سنة ١٥٤٣ م (٤٣) » .

وعلى ذكر الحديث عن ترجمة القرآن في الغرب ، نذكر أننا نجد خبرا عن ترجمته كذلك الى اليونانية في وقت متأخر ، عن زمن الترجمة اللاتينية ، ولكنه على كل حال قبل الحركة الأخيرة في الاصلاح ، اذ يروى أن ذلك قد تم في القرن الرابع عشر الميلادى على يد يوحنا كانتا كوزيني ، الذى كان امبراطور الدولة الرومانية الشرقية في بيزنطة ، باسم يوحنا السادس ، ثم ترهب ودعي يوسف ، ويذكر كذلك أن راهبا يدعي ملاتيوس ، كان مسلما ثم اعتنق الدين المسيحي وترهب ، وقد عاونه في هذه الترجمة (٤٤) .

---

(٤٣) مادة قرآن في دائرة معارف الأديان والأخلاق .

ولويجى بونيلى فى مقدمة ترجمته الايطالية للقرآن المطبوعة سنة ١٩٢٩ ص ١٥ .

وقد ذكر الأستاذ ترند فى كتاب تراث الاسلام . ج ١ ص ٥٥ من الترجمة العربية ـ روبرت هذا أحد مترجمى القرآن ، بين من زاروا مدرسة طليطلة ، وسماه « روبرت الانجليزى » (Ropertus Ange'icos)

(٤٤) الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٣٢١ . وقد أشرنا فى الفصل الأول فقرة ٩ ، الى خبر هذا الراهب المتنصر ، كما ذكرنا فى فقرة ١٠ من هذا الفصل ، خبر مصاهرة السلطان أورخان العثمانى لهذا الامبراطور .

بل نجـد أن القرآن نفســه لم يكن يعـرف في أوربا بتراجمه غـير العربية فقط ، وانما كان يقـرؤه قسيسون بالعربية في أوربا ، خلال القرن الثالث عشر ، على ماورد في احدى رسائل القسيس ريكولدو الايطالى المتوفى ســنة ١٣٢٠ م (٤٥) ٠

★★★

٩ ــ وبين اللاهوتيين المسيحيين فى الشرق والغرب ، رجال عرفوا الاسلام معرفة غير يسيرة الشأن ، ولا ساذجه ، فاطلعوا على معارفه الدينية وناقشوا فيها ، وجادلوا أهلها ، فمن هؤلاء فى الشرق مثلا : يوحنــا الدمشقى ــ البطريق يحيى ــ الذى عاش في القرن الثامن الميلادي ، هو وأبوه في قصر الخليفة الأموى « عبد الملك بن مروان » وله في جدل المسلمين أخبار مأثورة ، كما صنف فى ذلك ، وهو يعتبر أول منظم لعلم اللاهوت (٤٦) ٠

ثم تلميذه « تيودور أبو قرة » ــ ق ٨ ٠ م أيضــا ــ وهــو اللاهــوتي الضــليع ، المتمكن من معــرفة اليونانية والعربية ، والذى خلف ثلاثة وأربعين تاليفا عن الاسلام ، واليهودية ، والمذاهب المسيحية (٤٧) ٠

وغير هؤلاء كثيرون من رجال الدين العارفين بالاســلام فى الشرق ، والمـؤلفين فى الشــئون الاســلامية ٠ والذين لا نشك أنه كان لكتابتهم أثر فى الكنيسة الغربية ، لعــدم انقطاع الصلة بين الكنيستين فى ذلك العهـد على ما أشرنا اليه سابقا ٠

على أنا لا نطيل الحديث عن هؤلاء الشرقيين ، بل نعود الى الغرب نفســه ، فنرى أن بطرس الفينرابلى الداعى الى

---

(٤٥) هنرى دى كاسترو : الاسلام خواطر وسوانح ص ١٥٦ من الترجمة العربية ٠

(٤٦) الخورى عيسى اسعد : كتاب الطرفة النقية ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ ج ٠ مور : كتاب تاريخ الأديان : ج ٢ ص ٢٥٧ ٠

(٤٧) الخورى عيسى : المصدر السابق ــ ص ٢٠١ ٠

ترجمة القرآن اللاتينية ، يزور أسبانيا سنة ١١٤١ ، فيدرس هناك اصول النظريات الاسلامية الدينية ، ويكتب بحثا في نقد اليهودية والاسلام (٤٨) ٠

ولقد أشرنا قبل الان — الفصل الأول فقرة ١١ — الى ما كان من الرغبة المصطرمة لريموند لول في تبشير المسلمين بالمسيحية ، فكان له من المعرفه بالعربية واللاهوت الاسلامي حظ عظيم ، ولا ينكر الباحثون الغربيون صلته بالمصادر الاسلامية واثرها فيما ترك من مؤلفاته ، ولا يخامرهم شك في اقتباسه قسما عظيما من لاهوته عن العرب ، كما تنم عن ذلك رسالته عن أسماء الله المائة (٤٩) ٠

و « لول » هذا هو الذى أشرنا سابقا — فصل (٢) فقره (٥) — الى استعماله اللغة العربية والمعارف الاسلاميه أداة لحرب صليبية معنوية ، وأنه أسس لذلك في القرن الثالث عشر مدرسة تبشيرية ، تخرج رجالا يحسنون ذلك الكفاح ضد الاسلام ، كما أشرنا هناك الى مدرسة المبشرين في طليطلة لهذا الغرض عينه ، ونقول هنا ، انه كان من المتخرجين في تلك المدرسة « ريموند مارتن » — ق ١٣ ٠ وكانت له معرفة بمؤلفي العرب ، ربما كانت منقطعة النظير في أوربا بأسرها ، حتى في العصور الحديثة ، ولم يكن يعرف القرآن وسنة الرسول فحسب ، بل كان يعرف كذلك كبار العلماء من رجال الدين المسلمين ، وعظماء فلاسفة الاسلام » (٥٠) ٠

تلك ظواهر من اتصال الغرب بالتفكير الديني في الاسلام ، والابحاث الاعتقادية عند أهله شرقا وغربا ، ظواهر تجعل الاتصال بين الدينين وثيقا قويا ٠

★★★

(٤٨) مادة Pierre le Venerapla le Grand Encicl من دائرة المعارف الفرنسية ج ٢٦

(٤٩) أ ٠ جيوم : تراث الاسلام ص ٢٧١ من الأصل ٠ ج ١ ص ٣٠٠ من الترجمة العربية ٠

(٥٠) المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل — ج ١ ص ٣٠١ من الترجمة العربية ٠

١٠ ــ ومع ما رأيناه من اطــلاع الغرب على الدراســة الدينية الاسلامية ، نقف هنا وقفة خاصة ، لنشير الى عالم أندلسى كبير الخطر، مؤثرين أن نلفت النظر أولا الى ما يلحظه الباحثون الغربيون ، من أن أسبانيا الاسلامية كانت مــرآة صافية يتجلى فيها شتيت المذاهب الاسلامية ، كما كانت أداة هامة فى نقل تأثير العرب الى الغرب (٥١) •

وذلك العالم الذى تبتغى الاشارة اليه هو : أبو محمد على ابن أحمد بن حزم الظاهرى ، المؤيد القوى للفكرة الظاهرية بالاندلس ، وآلذى نعتبر الناحية المبتكرة فيه ، هى تطبيق أصول هده الفكرة على العقائد ، فلا يأخــذ فيها الا بالمعنى الظاهرى للقرآن والاحاديث الموثوق بها ، وعلى هذا الاساس من البحث ، نقد الفرق الاسلامية نقــدا شديدا ، كما كان يمثل أهل التوحيد الذين انتقضوا على التوســل بالأولياء ، ومذاهب الصوفية ، وأصحاب التنجيم (٥٢) •

هــذا العــالم ذو الآثــار الكثيرة ، والآراء القــوية ، والشخصية الواضحة ، لا أجــد عنتا فى القول بأن الغرب المتصل باللغة العربية ، والدراسات الاسلامية ، ــ وبخاصة فى أسبانيا ــ قد عرفه واتصل بآثاره •

ولئن كنت لا أجد الشاهد النصى على هذا ، فانى أسوق لتأييد استنتاجى الاعتبارات الآتية :

١ ــ انه عاش فى اسبانيا ، حيث كان الاتصــال قويا جدا ، بين الغرب والآثار الاسلامية (٥٣) • على ماقدمنا من بيان •

---

(٥١) راجع فى هذا صفحات ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٧١ من ج ١ : تراث الاسلام الترجمة العربية •

(٥٢) ارندنك C-Van-Arendonac كاتب مادة « ابن حزم » فى دائرة المعارف الاسلامية ص ١٣٩ ــ ١٤٠ من المجلد الأول من الترجمة العربية •

(٥٣) تقرأ فى كتاب تراث الاسلام ــ ج ١ ص ٥٤ ــ من الترجمة العربية ما نصه : « ،قد استغرق تأثير الاسلام كل مرافق الحياة في اسبانيا فى القرن العاشر • فلما سقطت طليطلة انتشر هذا التاثير حتي شمل بقية اوربا ، ذلك أن هذه الأخيرة كانت قد أصبحت =

٢ ــ انه أحرز حظا عظيما من الشهرة ، وكانت له آثار قيمة ، كما كانت حياته مثار مقاومة عنيفة ، واضطهاد شديد فمثله ليس بالمغمور ، ولا بالمجهول •

٣ ــ بقاء أفكاره وآرائه ، واستمرار الخلاف حولها الى ما بعد وفاته بنحو قرن تقريبا (٥٤) ، فذلك خليق بلفت النظر اليه •

٤ ــ مقاومته العنيفة لليهودية والنصرانية على اختلاف مذاهبهما ، وكثرة مناقشته ورده على مواضع اختلافهما مع الاسلام ، واظهار مواطن الأخذ والرد فيهما •

فمثل بطرس الفينرابلى (٥٥) وهو رئيس دير ، اذا مازار اسبانيا بعد وفاة ابن حزم ببضعة وسبعين عاما ، على ما نقلنا آنفا من خبر ذلك (٥٦) ، وعرف هناك النظريات الدينية الاسلامية معرفة نقدية ، يكتب صاحبها بحثا فى نقد الاسلام واليهودية ، لا يكون من اليسير أن يجهل ابن حزم وآثاره ، بعد الذى قدمنا من ملاحظات •

ولسنا نذكر « بطرس » هذا الا على سبيل المثال ، فليس ببعيد أن كثيرين مثل بطرس قد ترددوا على اسبانيا : واتصلوا بالنظم الاسلامية كما هو معروف ، فلا علينا اذا ما رجحنا أن ابن حزم قد عرف فى الغرب ، وعرفت آراؤه الخاصة ، التى أشرنا اليها آنفا ، وسنشير اليها فيما بعد ، عند تناول مبادىء الاصلاح المسيحى تفصيلا •

ترجح معرفة الغربيين لابن حزم ، فهم الذين عرفوا من فى المشرق البعيد، سريعا وجيدا، كالغزالى وغيره على ما بيناه من قبل •

★★★

* شيئا فشيئا ، مركز الثقافة الاسلامية فى القرن الحادى عشر ، بعد أن خرب البربر قرطبة فى أوائل هذا القرن ، وبقى لها هذا المقام بعد الغزو المسيحى سنة ١٠٨٥ ••• الخ » ، وابن حزم من أهل القرن الحادى عشر الميلادى ـ توفى سنة ١٠٦٤ م ــ •

(٥٤) ارندنك : المصدر السابق ص ١٤٣ من الترجمة العربية •

(٥٥ ، ٥٦) انظر الفصل الثانى فقرة ٨ •

١١ ـ ولعل من خير ما نتم به اعـداد ذهن القـارىء للحديث التفصيلى عن تاثر مصلحى المسيحية بالاسلام ، أن نلفت النظر الى ذلك الاتصال بين الشرق والغرب ، ودينيهما ، فى البيئة الالمانية بخاصة ، اذ هى التى كانت ميدان معارك الاصلاح العملى للمسيحية ، فى دوره التنفيذى .

ففى حركة نقل العلم الاسلامى الى أوربا ، قد رأينا ان ناصرها الأكبر ، انما هو الأمبراطور الملحد ، فردريك الثانى هوهنشتاوفن الألمـانى ، الذى يعرف تاريخ الكنيسـة أثر صراعه وصراع أسرته ، وما لحق البابوية بسبب ذلك من أضرار .

وميـول هـذا الامبراطور ، الشرقية العربيـة ، بل الاسـلامية ، كانت مثلا غريبـا فى أوربا ، فى العصـور الوسطى ، بل فى هـذه العصور الحديثة أيضا ، فلقد آثر الثقافة العربية على الثقافة اليونانية ؛ وظهر التأثير العربى فى تربيته وفى ميوله الشـخصية والطبيعية ، وفى علاقاته بالعالم الثقافى الشرقى ، ولعظم التأثير العربى عليه ، كان يلقب « السلطان المعمد » (٥٧) . ومنذ أعوامه الأولى كان يحيا على أسلوب عربى ، ويألف العادات العربية ، وقد أنشأ من عهـد زواجه الأول مقاصير للسيدات ـ يسميها الكتاب الغربيون حريمـا (٥٨) ـ وعلاقاته الودية مـع الشرق ، ولا سيما مصر ، وتونس ، مما يلذ تتبع بحثـه ويكشف عن درجة تغلغل روح الشرق فى أوربا ، خلال العصور الوسطى .

ثم نرى أن والـدة ألفونس الحـكيم الذى هـو ضريع فريدريك الكبير فى هذه الرغبات الشرقية الاتجاه ، والذى عمل بجد على نقل الثقافة الاسلامية الى أوربا ، نرى أن والدة

(٥٧ ، ٥٨) رافاييل مورجن Raffaello Morghen أستاذ تاريخ القرون الوسطى بجامعة روما ـ فى مادة فردريك الثانى هوهنشتاوفن . دائرة المعارف الايطالية الجديدة .

ألفونس هــذا انمــا هى أميرة ــ سفيفيا ــ المقاطعــة البافارية (٥٩) ؛ التى منها فردريك الثانى وأسرته •

كما نرى أن الفيلسوف الشهير ألبرت الكبير (٦٠) يمت بصلة واضحة الى فردريك الثانى أيضا ، وليس الفيلسوف الا ابن أحد أصدقاء هذا الامبراطور نفسه •

وكذلك نجد أن القديس توما الأكوينى ، الفيلســوف اللاهــوتى (٦١) ، انما هــو ابن أحــد اقارب أسرة هــذا الامبراطور ــ هوهنشتاوفن ــ أيضا • وكلا الفيلسوفين قد أصاب حظه من معرفة الثقافة الاسلامية والتأثر بها ــ أنظر فصل ٢ فقرة ٧ ــ •

ومن كل هــذه الشواهد نقدر صلة البيئة الألمــانية ، بالثقافة الاسلامية والمؤثرات الاسلامية ، ونرى أثر تلك البيئة يظهر فى قشتالة ، بأقصى الغرب الجنوبى فى أوربا ، كما يظهر فى ايطاليا جنوبا •

على أنا نــرى فى القرن التالى لمــا سبق ــ أى القرن الرابع عشر الميلادى ــ أن بافاريا هذه نفسها ، هى المعقــل لحمــاية أعداء الســلطة الكنســية ، الذين هم من أنصــار الفلسفة الرشدية ، وأحــرار الرهبــان الفرنشيسكانيين ، اذ يحمى بلاط لويس ملكهــا مثــل : مارسيليودى بادوفا الرشــدى الشهير ، وعــدو الكنيسة كمــا يحمى « أوكام » الفيلســوف الفرنشيسكانى ــ الذى سنرى علاقته الفكرية بلوثر ــ وأوكام هــذا هــو الذى قــال للامبراطور كلمته

---

(٥٩) مادة ألفونس الحكيم فى دائرة المعارف الايطالية •

(٦٠) ألبير الكبير « ١٢٠٥ ــ ١٢٨٠ م » فيلسوف مدرسى وراهب دومينيكانى ، واسع الاطلاع حتى لقد اتهم بالسحر ، كجربرت سلفستر تلميذ العرب ، وقد قدمنا أنه كان يعرف العربية •

(٦١) القديس توما « ١٢٢٥ ــ ١٢٧٤ م » أشهر تلامذة ألبرت الكبير ، ونسبته « الأكوينى » الى أكوينو ضاحية نابلى ، وهو راهب دومينيكانى أيضا ، منحه البابا لقب قديس ، ولقبه بابا آخر بعد ذلك « بالمعلم الملائكى » •

التاريخية الشهيرة « دافع عنى بسيفك أدافع عنك بقلمى » (٦٢) ·

وفى هذه البيئة الألمانية قد رأينا التأثير الاسلامى يصل الى « ايكهارت » - انظر فصل ٢ فقرة ٧ - وسنرى فى الفصل التالى ، كيف يظهر هذا التأثر فى جماعة « اخوه وأخوات الفكر الحر » فى ألمانيا العليا ، وفى سويسرا ، كما سنرى أثر « ايكهارت » المباشر فى آراء الاصلاح البروتستانتى ·

من كل هذا يتجلى للقارىء التأثير الاسلامى الذى أوضحنا قوته فى أوربا بعامة ، وأنه كان واضحا قويا فى البيئة الجرمانية - أى الميدان الأخير للاصلاح - ·

★★★

١٢ - الى هنا قد بينا مظاهر الاتصال المادى ، والاتصال المعنوى ، عقليا ، واعتقاديا ، بين الاسلام ، والمسيحية فى الغرب ، بيانا يحق لنا بعده أن نقول : اننا قد دللنا به على الطريق الناهج السوى لانتقال ما انتقل من أفكار وآراء ، حتى ليحق لنا بعد هذه المقدمات أن نتصدى لبيان النتائج ·

---

(٦٢) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٩٨ ·

الفصل الثالث

من نتائج الاتصال

١ ــ نتقدم مطمئنين بعد الذى أبنا من طرق الانتقال ، ونواحى التأثر ، وعوامل التأثير ، فنشرح ماترتب على هذا كله من نتائج عامة فى الحياة الدينية ، والعقلية الأوربية ، من حيث مظهرها في تدين أهلها ، وفهمهم للدين ؟ ثم ماترتب على هذا كله من نتائج خاصة فى الاصلاح المسيحى نفسه ، وآراء القائمين به ، وما دعوا اليه من أفكار ، وناضلوا فى سبيله من مبادىء ، عساهم قد تأثروا فيها بالاسلام .

نريد أن نبين ما تأثرت به ــ بصفة عامة ــ الحياه العقلية ، والحياة الاعتقادية ، والعلاقة بين المسيحى والكنيسة الكاثوليكية وما الى ذلك ، خلال القرون الوسطى ، اذ الصلة بالشرق والاسلام وثيقة .

كما نبين ما تأثرت به ــ بخاصة ــ حركة الاصلاح المسيحى نفسها ، تلك الحركة التى عملت فيها أجيال متعددة ، وطبقات من الناس ، منذ القرن الثانى عشر الميلادى الى القرن السادس عشر (١) .

---

(١) ليس بدعا من الرأى التاريخى ، ان ننظر الى أصول الاصلاح البروتستانتى هذا النظر البعيد ، بل هو الذى تتطلبه الدقة التاريخية ، وتؤيده السنن الاجتماعية ، على أن الكتاب عن تاريخ المسيحية قد صرحوا بهذا حتى جعلوا الاصلاح اصلاحين : الأول والثانى . ومن هؤلاء « ايرنستو بونايونى » فى كتابه « معالم تاريخ المسيحية Pietre Miler nellea Storia del Cristianesimo وهو الحلقة الثامنة من مجموعة « مسائل اليوم » (problemi d'aggi) .

على أنا حين نفسر هذا الاتصال ، وذلك التأثير ، لانزعم أنه هو وحده الذى خلق حركة الاصلاح المسيحى ، وأنه سببها الأول والأخير ، بل نقدر ماهنالك من أسباب وعوامل اجتماعية ، ودينية ، وغيرها ، قد عملت عملها ، وتركت أثرها ، ودفعت الحياة الى ذلك الاتجاه ، فلفتتها الى النواحى العقلية والدينية ، التي قربها لها ، وقدمها بين يديها ، ذلك الاتصال السالف بالشرق الاسلامى ·

فمقصدنا العلمى ، انما هو القاء الضوء الكافى على الجانب التاريخى من اتصال الدينين ــ المسيحية والاسلام ــ ببيان هذا الاتصال وأثره ، تاركين ماعدا ذلك من مؤثرات أخرى سببت ظهور الاصلاح الديني وتمامه ، لاننا لا نؤرخ الاصلاح تاريخا شاملا ، وانما نقصد الى بيان هذا العنصر من أسبابه فحسب ·

(أ) الآثار العامة

٢ ــ كانت مظاهر هذا التأثير العامة فى حياة المسيحية بالغرب هى :

(أولا) الغض من سلطة الكنيسة ، والحد من سيطرتها على الحياة : ولعل هذا الغض من السلطة الكنسية قد بدأ منذ وقت مبكر في الشرق ، بسبب انتشار الاسلام ، اذ دخلت فى

عقد الكاتب المذكور فى كتابه هـــذا فصلين : أحدهما عنوانه : الاصـــلاح = الأول ، والآخر عنوانه : الاصلاح الثاني

وبدأ الأول بالحديث عن الفالدية فى القرن الثانى عشر الميلادى · ومن أجل ذلك لا أجد تكلفا فى التفسير التاريخى الذى سرت عليه هنا فى فهم اصلاح المسيحية · ولا أظن أن فى هذا الاتجاه تحيزا ما · وليس يؤثر فى صحة هذا النظر التاريخى أن تعد طلائع الاصلاح الأولى ، وبوادره القديمة الحادا زيغا ، عند الكتاب الكنسيين فى تاريخ المسيحية ، فان البحث العلمى لا يجزع من مثل هذا ، ولا يتأثر به ، ومثله مما تختلف فيه النظرة = عقد الكاتب المذكور فى كتابه هـــذا فصلين : أحدهما عنوانه : الاصلاح الأول ، والآخر عنوانه : الاصلاح الثاني

حمايته كنائس شرقية تمتعت بتساهل المسلمين ، فوجدت الفرصة لترويج آرائها الدينية ، التى كانت تحتسب عند الكنيسة المحافظة بدعا ، فثغرت بذلك قوة الكنيسة ، وأضعفت تماسكها (٢) ٠

ثم كانت الحروب الصليبية ، التى آن أثارتها حمية قوية ، فقد كانت نتيجتها بعد أن اتصل الشرق بالغرب ، اتصالا قويا ، أن خمدت تلك الحمية ، وفترت حدتها ، فلم ينته القرن الثانى عشر ، ويبدأ القرن الثالث عشر حتى همد ذلك الحماس ولم يعد يحرك القلوب الأوربية ، فوقف تدفقهم على الشرق بالكثرة الأولى ، وتغير نظرهم للمسلمين وتقديرهم لهم ، حتى انتهى الأمر أخيرا الى تحديد سلطة الأفكار الدينية المطلقة على عقولهم(٣) والاقلال من سيطرتها على أفئدتهم ٠

★★★

٣ ـ ثانيا : تحرير العقل : وقد كان هذا التحرير الخطوة الأولى ، والسبب الفعال لما أشرنا اليه من تحديد السلطة الكنسية ٠

تم هذا التحرير بتأثير عوامل مختلفة ، كهذه المعارف العلمية المتنوعة التى اتصل بها الغربيون ، وكان للشرق فضل الهداية اليها ، وكالحركة الفلسفية التى ذكرنا علاقة الغرب فيها بالشرق ، والفلسفة دائما تعطى العقل قوة الشعور بنفسه ، والاحساس بوجوده ٠

ولقد مرت الفلسفة بأدوار مختلفة فى علاقتها بالدين

---

(٢) الى هذا المعنى يتنبه مؤرخو الأديان من الغربيين ، راجع تاريخ الأديان لمور فى ترجمته الايطالية ج ٢ ص ٢٥٧ ٠

(٣) جيزو ٠ تاريخ الحضارة ٠ السابق ذكره ٠ ص ٢٦١ ، ٢٦٤ من الترجمة العربية ٠

من مخالفة ، وتوفيق وغير ذلك حتى كان مصيرهــا التحرر التام من سيطرته (٤) ٠

واذا ذكرنا الفلسفة وعملها في تحرير العقل ، فمايمس موضوعنا اقوى المساس تلك الملاحظه التي يذكرها رينان في دراسته لفلسفة ابن رشد ، وهى :

« أن الرهبان الفرنشيسكانيين كانوا أنصــارا اقوياء للفلسفة الاسلامية ، ومبادىء ابن رشــد فى اوربا (٥) ٠ اذ نذكر أن هؤلاء الفرنشيسكان كانوا بحريتهم العقليه من أقوى المقاومين للسلطة الكنسية ، كما سنرى الامثلة الكثيرة لذلك فيما يلى ، حتي لنستطيع أن نقــول فى طمأنينة ، ان الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية ، فى القرون الوسطى ، كان صراعا بين الكنيسة والفلسفة الاســلامية مباشرة ، أو بالواسطة ، كما يشهد بذلك تاريخ الفلسفة الرشــدية فى أوربا ٠

★★★

٤ ــ وحين نتكلم عن الصراع بين الكنيســة والحــرية العقلية ، نستطيع أن نجــد الصلة غــير الخفية بين حركات التجديد فى حياة الكنيسة ، أو حركات الخروج على الكنيسة ،

---

(٤) يلاحظ مؤرخو الفلســفة ، ان الفلســفة المدرسية ، قد كان مصيرهــا هو مصــير الحروب الصــليبية ، فكما بدأت هــذه الحروب بالرغبــة فى تخليص قبر المسيح من يد الكفار ، فانتهت الى خلق التجارة الواسعة ، وتنمية الرفاهية الانســانية ، وهكذا أخذت الفلسفة المدرسية فى حمايه العقيدة على يد « ألبرت الكبير » « وتوماس الأكوينى » ، فانتهت باحياء حركة عقلية ترفض كل تدعيم للعقيدة أو حماية لها ٠

راجع فيوريتتينو فى خلاصــة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٩٧ ، فقرة ١٢٢أ بتصرف يسير ٠

(٥) فرح أنطون : ابن رشد وفلسفته ص ٧٣ ٠ وحين نسوق هذه الاشارة لا ننسى عداوة مثل « ريموند لول » للفلسفة الرشدية ، لقوة تعصبه ودعوته الى انشاء جمعية عسكرية كبرى للسعى الى اسقاط الاسلام ، ولكنه مع ذلك ، كان واسع الأفق ٠ جعل معرفة الاسلام والعربية عدته فى رعاياته التعصبية ضد الاسلام ، الذى طاف أوربا ، محرضا الملوك والباباوات فيها على حرب صليبية ضده ، ولعلنا نشهد اليوم هذه الظاهرة فى استعانة الشرق بمعارف الغرب حين يكافحه وللحياة نواميس وسنن مطردة ٠

وبين المؤثرات الاسلامية ــ من ثقافة وغيرها ــ اذ كانت هذه الحركات الدينية صدى التقدم العقلى ، واليقظة الروحية ، التى رأينا علاقتها فى الغرب ، بالمؤثرات الاسلامية •

ففي الماضى غير القريب ، نرى الفرقة الفالدية (٦) فى الثلث الأخير من القرن الثاني عشر ، تلك الفرقة التى كان ظهورها من الحركات القديمة ضد الكنيسة وحالتها الفاسدة فانتظمت مبادئها عناصر هامة ، مما قرره أخيرا الاصلاح البروتستانتى فى القرن السادس عشر (٧) •

ومما يلفت نظر الباحث فى حال هـذه الطائفة أنهـا نشأت فى جنوب فرنسا حيث امتد نفوذ الاسـلام السياسى والروحى ، بل حيث توطن المسـلمون فعـلا ــ أزمنة غـير قليلة ــ على ما بيناه فى « الفصل الأول » ــ وحيث عـرف الفرنسيون الاسـلام ، أو اعتنقه أشخاص منهم ، ثم حيث تجاور هذه المنطقة أسبانيا الاسلامية ، أقوى مصادر التأثير الاسلامى على أوربا ، وحيث كان يهاجر اليهود من أسبانيا حاملين آثار الثقافة الاسلامية ــ على ما أشرنا اليه كذلك فى الفصل الثانى •

أفليس ذلك كله مما تسهل معه ملاحظة أثر هذه الظروف المادية والمعنوية فى تفكير طائفة الفالديين هذه ، وحياتها ؟ ولو أني لا أحب المضى هنا فى وصف هذا الأثر وتحديده ،

---

(٦) نسبة الى « بطرس فالدو » ، الذى كان تاجرا فى ليون ، وقرر أن الكنيسة الرومانية حائدة عن الإنجيل ، وتجب اعادتها الى أصوله ، فتصدى لذلك • ومن آراء هذه الطائفة : وجوب التعويل على الكتاب المقدس ، وأن الكتاب يتضمن كل ما يكفي للنجاة ، وأنه لا مقتضى للاستغاثة بالقديسين والاستشفاع بهم في نوال النجاة ، كما يرون أن رياسة البابا يجب هدمها •• الخ •

واذا كان الكتاب الدينيون ينعتون هذه الشيعة بالمروق فان من المؤرخين من يقول : انه لو اعتمد البابوات هـذه الطائفة كما اعتمدوا رهبنة الفرنشيسكانيين مثلا ، لكان « فالدو » يعد اليوم من القديسين ، بدل أن يحسب في المبتدعين • وقد أسلفنا القول في أن ما يعد بالأمس مروقا ، يصبح في الغد اصلاحا •

(٧) الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٢٧١ ــ ٢٧٢ •

مكتفيا بالاشارة الى الآثار العامة ، والصلة غير الضعيفة بين الحركات الكنسية والبيئة الاسلامية •

★★★

وبين حركات التجديد التي أقرتهـا الكنيسة ، نرى الرهبانيتين العظيمتي الشأن في القرون الوسطى ، وهما الرهبانية الفرنشيسكانية ، والرهبانية الدومينيكانية • تنسب أولاهما الى « فرنشيسكو الاسيسى » • الذى حدثناك عن رحلته الى الشرق ، ولقائه الملك الكامل ، يحاول تبشيره بالنصرانية – فصل ١ فقرة ١١ – ، فقد كان لرحلته الى الشرق أثرها في تأسيس تلك الرهبانية ، وبتجاربه فى التبشير بسوريا والمغرب ؛ رجع يكرس نفسه لاعادة المسيحيين فى أوربا الى الحياة المسيحية الحقيقية (٨) •

وتنسب الرهبانية الثانية الى « دومينيكوس » الراهب الاسبانى ، مخترع ما يسمى في الكنيسة « بالفحص الشريف » ، الذى عرف فى التاريخ باسم ديوان التفتيش ، وقد كان أول ما قام منه فى مدينة طليطلة سنة ١٢١٦م •

وليس من الدقة أن نغض النظر عن اسبانية هذا الراهب ، أو عما ظهر فى هذه الرهبانية ورجالها من ميل مبكر الى العلم، وحسبانهم حسابا كبيرا للمعرفة والدرس(٩) فلاسبانيته بلا شك أثر فى هذا كله •

على أنه قد ظهر من الرهبانيتين كثير من المفكرين والفلاسفة الذين ذكرنا آنفا ، صلتهم بالبيئة الاسلامية مثل: ألبرت الكبير ، والقديس توما الأكونيى من الدومينيكانيين : والاسكندر الهاليسى ، وروجر بيكون ، ودنس سكوت ، من الفرنشيسكانيين ، وغير هؤلاء وأولئك •

---

(٨) ج • مور : تاريخ الأديان ج ٣ ص ٣٠٩ • ترجمة ايطالية •
(٩) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١١ •

وقـد ذكـرنا قريبـا ملاحظـة « رينان » عن عـلاقة الفرنشيسكان بالفلسفة الاسلامية وتأثرهم بها .

ثم فيما بعـد ذلك نـرى فـرقة مسيحية متطرفة فى التسامح ، كانت تقول بوحدة الوجود ، تلك هى فرقة « اخوة وأخوات الفكر الحر Fratellie scorelledel libero sperito التي ظهرت فى ألمانيا (١٠) العليا ، وسويسرا وتبـدو لها علاقة بمبادىء الفيلسوف « أمالريكو دى بينا » الذى استقى آراءه من التيـار الأفلاطونى الحـديث فى الفلسـفة الاسلامية (١١) .

وهذه الطائفة الى جانب صوفيتها التي ذكرناها ، كانت تنفى كل ألوهيـة خاصـة للمسيح ، الى غـير ذلك من آراء تسامحية حرة .

وهكذا نجـد مظاهر الاتصـال بين الحركات الكنسية والثقافة الاسلامية، بما لا نطيل فيه أكثر من ذلك، مطمئنين الى أن الأثر العام لهذا الاتصال الذى قدمنا بيانه ليس خافيا، بل هو من البيان بحيث يعد نفس القارىء المنصف للقـول بالتأثير الاسلامى الخاص .

---

(١٠) هذا ما أشرنا اليه فى فصل ٢ فقرة ١١ ، عند الكلام عن صلة البيئة الألمانية خاصة بالثقافة الاسلامية .

(١١) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٥ – ودى بينا هذا فيلسوف مدرسى كان أستاذا للاهوت توفى سنة ١٢٠٦ م . وقد كفرته الكنيسة وبددت جثته .

الآثار الخاصة

(فى مبادىء الاصلاح البروتستانتى نفسها)

٥ ـ اذا قيل ان خصائص الحضارة الاسلامية ، والدين الاسلامى، قد تسربت خلسة تقريبا الى العالم اللاتينى(١) •

ثم اذا ما قيل ان الأدلة كافية فى تبيان مجـرى النظر الفلسفى والدينى ، أثناء انتقاله من الشرق الى الغرب(٢) •

اذا ما قيل هذا وذاك من باحثين غربيين ، فانا نقول بعد الذى بيناه : ان مسالك هذا التسرب ، ومظاهر هذا الانتقال قد صـارت معروفة جلية ، واننا نتقـدم مطمئنين ، لنبين وصولها الى أهم أصول الاصلاح المسيحى الذى خلف المذهب البروتستانتى • واليك البيان :

١ ـ أهم أصول الاصلاح ، والطابع العام له فى جميع الأقاليم ، هو :

رفض السلطة الكنسية ، سواء أكانت ممثلة فى البابا ، أم فى المجامع (٣)

وهذه الفكرة الاصلاحية قد ظهرت منذ الاصلاح الأول ، على يد الفالديين ، فى القرن الثانى عشر ، وقـد استرعينا

---

(١) جويدودى روجيرو : تاريخ الفلسفة المسيحية ج ٣ ص ٧ •
(٢) أ • جيوم : تراث الاسلام ج ١ ص ٣١٨ من الترجمة العربية •
(٣) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٥ •

نظر القارىء ــ في فصل ٣ فقرة ٣ ــ ليقدر أثر البيئة الماديه والمعنوية التي نشئوا فيها جنوبى فرنســا ، وما يمكن ان تتأثر به من الاسلام .

بل نرى في عصر أقدم من عصر الفالديين بقرون ، ان « جربرت دوفرن » وهــو « البابا سلفستر الثانى » الوثيق الصلة بالثقافة الاسلامية ، والبيئة الاســلامية في اسبانيا ــ وان أمكن الشك في رحلته اليهــا ــ جربرت هــذا قد ثار ضــد الســلطة الكنسية ، وهــو يعد أعظم من كتب ضــد الأساقفة (٤) .

ثم نجــد وراء ذلك أن النقد الاســلامي لهذه السلطة الكنسية قوى شــائع ، حتي ليتمثل فى أناشــيد العصــور الوسطى ، ويتغنى به ، فصلاح الدين الذى يذكر فى الأناشيد الفرنسية واللاتينية لذلك العصر ، نراه في احدى الروايات يناقش فى الديانات ، وأعظم عيب عاب به النصرانية هــو عبادة البابا ، ومسألة الاعتراف (٥) .

وفى الحق انه يلاحظ أن فكرة بيع الغفران ، القائمــة على أن كنوز الصالحات تدخر من أعمال الصالحين ، ليباع منها لغيرهم ، تلك الفكرة تناقض أصــولا مشهورة ، ونصوصا صريحة فى آيات القرآن ، التى كانت مترجمة الى اللاتينية واليونانية قبل الاصلاح بقرون (٦) ، والتي اتصل بها ولابد

---

(٤) الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية فى تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٢٠٩ .

(٥) هنرى دى كاسترو : الاسلام ص ١٤٥ من الترجمة العربية . ولقد كتب طبيب الملك فيليب اوغوست ــ ق ١٢ ، ١٣ ــ هجاء مؤلما للقسيسين سماه « الطب المقدس » . والفالديون الذين اشرنا الى صلتهم بالثقافة والبيئة الاسلامية ، كانوا فى القرن الثانى عشر يسمون البابا « ضد المسيح » ، ويسمون الكنيسة الرومانية « بابل » .

(٦) ولئن كان القرآن يترجم فى تلك العصور للرغبة فى نقضه أو الرد عليه ، فانا لا ننسى أن هذا الاتصال السلبى المناوئ ، له أثره فى تطرق الافكار الى المعاند ، وتأثره بها لما نعرفه من وقع الفكر والآراء على الأعصاب ، وتركها آثارها فيها ، وانفعال النفس بها ، ولو بدأت صلتها بها فى هذه الصورة من المقاومة والمعارضة . . تقدير هذا مما يجده الانسان فى خاصة نفسه ويشهده فى انتقال الآراء ونواميس تفاعلها لو دقق النظر .

فى هاتين اللغتين غير قليلين من مثقفى تلك العصور ، الذين رأينا قوة ما يمنون به من الأسباب الى الثقافة الاسلامية العلمية ، والدينية •

ومن الناحية الفلسفية تجد الفكرة التى ترفض السلطة الكنسية فى فلسفات كثيرة ـ من تلك التى كشفنا عن وثيق صلتها بالفلسفة الاسلامية ـ وهنا نريد أن نذكر منها فلسفات متأخرة قاربت عهد انجاز الاصلاح المسيحى ، وأثرت فيه تأثيرا مباشرا ، وتلك هى فلسفة أوكام (Occam) وأتباعه مثل : ج • بيل (G. Biel) ود • أيلى D. Ailly

= والآيات المتناهضة لفكرة بيع التوبة ، وكنوز الصالحين كثيرة فى القرآن منها : ما فى (سورة فاطر ٣٥ ـ آية ١١) « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ، انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه والى الله المصير » • وما فى سورة المدثر (٧٤) آية ٣١ : « كل نفس بما كسبت رهينة » • وما فى سورة ٢ ـ البقرة ـ آية ٢٨١ : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » • وسورة ٣١ لقمان • آية ٣٣ : « يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ••• » الى غير ذلك من آيات فى هذا المعنى ، كانت بين يدى الأوروبيين العارفين باللاتينية واليونانية • بل قد سمعنا أن فقرات من القرآن كانت تقرأ فى أوربا العربية نفسها ، هذا الى شروح اسلامية لهذه الفكرة عرفنا أنها وصلت الى المسيحيين ، وكانت فى متناولهم ، حينما كانت الكنيسة تسرف فى بيع صكوك الغفران ، واستغلال فكرتها فى ذلك تأييدا لسلطتها •

وحين نسوق الشواهد على مبدأ « أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، ذلك المبدأ الذى لم يجنح القرآن الى غيره ، يحسن أن نقول : ان العهد القديم مثلا لم يؤيد هذا المبدأ ذلك التأييد المطلق اذ ورد فى التوراة المنسوبة الى موسى ، فى سفر التثنية : اصحاح : ٥ آية ٩ : ضد هذا المبدأ حين تقول : « لأنى أنا الرب الهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، وفى الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضوننى » ، وفى سفر حزقيال من أسفار الأنبياء ـ بعد موسى ـ اصحاح : ١٨ ، آية ٢٠ ، تأييد هذا المبدأ « النفس التى تخطىء هى تموت ، الابن لا يحمل من اثم الأب ، والأب لا يحمل من اثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون » •

فتأييد الفكرة الأولى دون الثانية يحتاج الى مرجع ، هو الاسلام على ما يبدو لى فى غير تكلف •

لقوة اتصال لوثر بتلك الفلسفة ، اذ كان أساتذته فى الجامعة أوكاميين (٧) • وكان لوثر نفسه متأثرا بهـذه الفلسفة ، اذ نراه حينما وقع فى أزمته الروحيـة الدينية ، يقرأ كتب « أوكام » وأتباعه السابقين (٨) •

وأوكام هذا كان ــ كما قلنا سابقا ــ من الفرنشيسكانيين الذين ذكرنا ملاحظة رينان فى أنهم من أقوى انصار الفلسفة الرشـدية بأوربا ، ومن ألد اعداء الكنيسـة وسـلطتها ، و « أوكــام » هــذا هــو الذى قلنا انه احتمى بلويس ملك بافاريا ، مــع مارسيليو دى بادوفا ، وقال له اوكام كلمته المشهورة « دافع عنى بسيفك أدافع عنك بقلمى » (فصل : ٢ ــ فقرة : ١١) •

وتلك الصلة القريبة بالفلسفة الاسلامية تكفى اجمالا ، لكننا نجد فى القســم السياسى من الفلسفة الرشـدية ، ان فيلسوف قرطبة حين يعد حكومة الخلفاء الراشــدين أفضــل أنواع الحــكومة ، يعتبر أن شر الظلم ظلم رجــال الدين ، فيفضل من حكومة الخلفاء الراشدين ، تلك الحــكومة التى لا تعتد لنفسها شيئا من السلطان الدينى على الأشــخاص ، ولا تحتفظ بشىء من الامتياز ، أو الوساطة أو الفضل لهؤلاء الخلفــاء ، وينقم على ظلم رجــال الــدين معتبرا ايــاه شر الظلم (٩) •

(٧ ، ٨) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٨ ــ دائرة المعارف الإيطالية الجديدة مادة لوثر •

(٩) يتصل بهذه الفكرة الاصلاحية فى نبذ السلطة الدينية فكرة المصلحين ، فى عد جميع المسيحيين قسسا ، لهم حق الظهور بين يدى الله ، والصلاة للآخرين ــ مور : تاريخ الأديان ج ٢ ــ ص ٣٥٠ ــ •

وهذه الفكرة فى استخلاص الدين من رجال الكنيسة ورده الى العوام ، وجعله حقا لكل أحد لا حكر فيه لفرد أو طائفة ، هذه الفكرة ليست الا صدى الأثر العام للاتصال بالاسلام شرقا وغربا ، ذلك الأثر الذى وصفناه فى الفصل الثالث • فقرة ٢ ، ٣ ، ثم هى النتيجة المباشرة لاطراح سلطة البابا ، وتسفيه فكرة الوساطة بعامة ــ مما بينا فى هذه الفقرة طريق وصوله عملا وفلسفة الى البيئات المسيحية من المصادر الاسلامية • وكون هذه الفكر مبادىء اسلامية أصيلة ، لا يحتاج الى استدلال ولا استشهاد •

وهكذا نرى أن انكار السلطة الشخصية الفردية فى الدين ، وعدم الاعتراف لأحد بها ، من الخصائص الاسلامية ، التى تسربت الى أوربا على لسان المسلمين ، وفى تعليم دينهم وعمل خلفائهم الأولين ، بعد ما ترجم من عبارات قرآنهم وفيما انتقل من فلسفتهم ، وفى تحريرها للعقول ، الى آخر ما بيناه فى هذه الفقرة ، وكشفنا به عن مسالك ذلك التسرب ، واضحة قوية الاتصال .

٦ ـ الفكرة الثانية من أصول الاصلاح : ـ **أنه يكفى للنجاة تصحيح العقيدة ، فالنجاة منحة من الله ، يتلقاها الانسان من ربه رأسا بواسطة العقيدة دون العمل التوسطى للكنيسة فى ذلك ، اذ لا وساطة للكنيسة بين الله والناس** (لوثر) (١٠) .

وهذه الفكرة تتضح بأيسر التأمل صلتها بالفلسفة ، وما يتحدث من مذاهبها عن الروح وارتباطها بالملأ الأعلى . وهنا يتسع مجال التأثر بالتفسيرات الفلسفية الاسلامية لمثل هذه الأفكار .

على أننا لا نقف فى هذا عند حد الاتصال العام الذى ذكرناه ولا نكتفى بالاستنباط النظرى لهذا التأثر ، بل نجد فى أقلام المؤلفين الأوربيين ، حلقات تكون سلسلة ذلك الاتصال ، وتكشف عن خطوات الانتقال .

نراهم يقولون فى صراحة ، ان نواة هذه الفكرة الاصلاحية ، انما توجد فى تصوف ايكهارت الألمانى (١١) ؛

---

(١٠) مور : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

(١١) ايكهارت هذا هو الذى ذكرنا فى الفصل الثانى : فقرة ٧ ، تأثره بابن سينا وسنذكر هنا ، تأثره بالغزالى بشهادة كتاب الأوربيين أنفسهم فى تاريخ الأديان وتاريخ الفلسفة ، وهو : المعلم ايكهارت ، الذى ولد حوالى سنة ١٢٦٠ م ، فى ستراسبورج ، تلمذ لألبرت الكبير ، كما درس وعلم فى باريس ، واشتهر تبشيره فى أنحاء ألمانيا ، وتعرف مدرسته الفلسفية باسم « المدرسة الصوفية الألمانية » ، وهو أحد رهبان الرهبنة الدومينيكانية .

حين يطبق على اللاهوت (١٢) ، اذ هو يقـول : ان الروح الانسانية نفحة من الأزلى ، وشرارة الهيـة ، فلا ينبغى أن يقوم شيء من الوسائط بين الله والعقل ، بل يتم الاتصـال السريع بينهما مباشرة (١٣) ٠

وايكهارت فى هذا القول : بأن الروح الانسانية قبس الهي ٠٠٠ الخ ، يتصل بعلم النفس الديني للغزالى (١٤) ، المتصوف الاسلامي الكبير ، الذى بينا اتصال الغرب به اتصالا مبكرا ، ووصفنا شهرته عند الأوربيين ، ووجود آرائه فى كتب تعد أصولا فى النصرانية ، بل حصنا لها (١٥) ٠

★★★

---

(١٢) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣١٠ ٠

(١٤) ج ٠ مور : تاريخ الأديان ٠ ترجمة ايطالية ج ٢ ص ٣٠٦ ٠

ورأى الغزالى فى هذا مما بينه فى أكثر من موضع من كتبه المتعددة ، والى القارىء طرفا مما ورد فى كتابه « معارج القدس ، فى مدارج معرفة النفس » طبع القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ ـ اذ يقول فى ص ١٠٣ منه ما نصه :

« والا فكل قلب هو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق ، وان كان بينها « تفاوت كثير ، لانه امر رباني شريف كما ذكرناه ، فارق سائر جواهر العـالم بهذه الخاصية والشرف واليه الاشارة بقوله تعالى « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان » اشارة الى ان له خاصية تميز بها عن السموات والأرضين والجبال صـار بها مطيقا لحمل أمانة الله تعالى ، وتلك الأمانة هى المعرفة والتوحيد « وقلب كل آدمي مستعد للأمانة ومطيق لها فى الأصل ٠٠ » وقد قال فى ص ١٦ من هذا الكتاب ، « ونحن حيث أطلقنا فى هذا الكتاب لفظ النفس والروح والقلب والعقل » « فنريد به النفس الانسانية التى هى محل المعقولات » ٠ وعلى هذا جرى حديثه هنا عن القلب ٠

(١٥) تقرأ فى كتاب تراث الاسـلام ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، من الترجمة العربية ما نصه : « ولمباحث هذا المؤلف ـ الغزالى ـ ونتائجه أشباه كثر فى كتاب « الخلاصـة الفلسفية » الذى ألفه القديس توما ، وهذه حقيقة يصعب أن تجد لها أكثر من تفسير واحد » ، ثم تقرأ فى ص ٣٢٠ منه : وان فى وجود مذاهب اسلامية الأصل فى كتـاب الخلاصة الفلسفية للأكويني ـ وهو حصن المسيحية الغربية لدحضا كافيا لاتهـام العرب بالجدب ، ورميهم بالفقر الى الابتكار » ، وفى ص ٣١٩ قبل ذلك يقول عن العرب ما نصه :

« فقد كان لهم الفضل فى استبقاء نور العلم وضياء ، ومهما قيل فى ضآلة حظهم فى تقديم الفكر الفلسفى البحت ، فان خدمتهم للالهيات كانت على اعظم جانب من الأهمية » وأنت حين تقرأ هذه النصوص تجد قولنا بأخذ أفكار اصلاحية عن مصادر اسلامية ، على يد رجال الاسلاميين ، ليس بدعا من القول ولا افتياتا ، بل هو حقيقة ، تؤيدها النظرة الأوربية العلمية ، وان كنت لم أجد من ارتقى بها ، حتى ينتهى الى القول صراحة بهذه الصلة بين الاسلام واصلاح المسيحية ، فى الأفكار الدينية بخاصة ٠

على أنى من جانب آخر ، ألمح صلة بين هذه الفكرة فى كفاية تصحيح العقيدة وبين فكرة أخرى ، هى مسألة « الايمان والعمل » وضرورة تقدم الايمان ، حتى يوجد العمل الصحيح ... الخ ، لكنى لا أعنى هنا ببيان مناشىء الفكرة كلها ، بل حسبنا أن نكشف جانبا واضحا من صلتها بفكرة اسلامية ، اتضح انتقالها من الشرق الى الغرب ، كما تبين طريق ذلك الانتقال ، ولعل متابعة البحث تهدينى — ان شاء الله — الى استيضاح طريق التأثر بفكرة الايمان والعمل .

٧ ــ الفكرة الثالثة من الفكر الاصلاحية :

أن كلمة الله هى الضابط الوحيد : فالسلطة انما هى الكتاب المقدس وحده ، وينبذ كل ما هو خارج عنه من آراء المجامع ، والآباء ، والتقاليد (١٦) .

ويلحظ أن هدم الفكرة فى الرجوع الى المصادر الأولى ، والأصول المباشرة للدين ، هى فكرة شديدة الملاءمة لروح التجديد الدينى ، وأليق ما تدون ، بمحاولة اصلاح ما أصله الوحى والتوقيف ، وفيها مظهر للمحافظة يضفى على المجددين نوعا من الثقة ، ويبعد الريبة ، اذ يظهر عملهم فى صورة ابعاد الشوائب ، وتنحية الزوائد التى دخلت على الأصل ، ولهذا نجد فى تاريخ الاصلاح الدينى ــ مسيحيا أو اسلاميا أو غير ذلك ــ أن هذا الاتجاه مما يجتمع المصلحون والمجددون على السير فيه .

كما نجد في فرق الأديان الثلاثة ــ اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام ــ من يلتزم القول بهذا ويناضل عنه (١٧) . فهى خطوة فى التفكير مكررة ، ومظهر من التجديد مشترك .

---

(١٦) ج. مور : المصدر السابق ج ٢ ــ ص ٣٥٥ .
والدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٣٥٢ .

(١٧) من هذا فى اليهودية القراءون ، وفى المسيحية الفالديون ، والبروتستانت وفى الاسلام فرق متعددة فى عصور مختلفة وبلاد مختلفة .

على أن هذا لا يكفى فى تعليل ظهور الفكرة فى بيئة بعينها ، أو دين بعينه فى زمن بعينه ، بل لانزال نحتاج الى معرفة عوامل التوجيه اليها ، وأسباب ظهورها المباشرة ٠

وهذه الفكرة فى التعويل على الانجيل ونبذ ما عداه ، فكرة قديمة ، قال بها الفالديون فى القرن الثانى عشر ، وقد قدمنا ـ فصل ٣ ـ ، فقرة ٤ ـ ما لبيئة هذه الفرقة من صلة عملية : وصلة عقلية بالاسلام ، مع مجاورتها القريبة لاسبانيا الاسلامية ، اذ ظهرت فى جنوبى فرنسا كما سبق القول ٠

★★★

على أنا نرى من حق التاريخ ، أن نشير فى بيان مسرب هذه الفكرة الى المسيحيين الغربيين لما مهدنا ببيانه ـ فصل ٢ : فقرة ١٠ ـ من أمر الحركة الظاهرية فى الاندلس ، وتمسيل ابن حزم لها هناك ، وعمله على أخذ العقائد من الكتاب وصحيح السنة فقط ٠ كما نشير مع ذلك الى حركة تشريعية تحررية ، قاومت التقليد ، واعتمدت على السلطة التنفيذية للحكومة الاسلامية اعتمادا لا نكاد نجد له نظيرا فى تاريخ التشريع الاسلامى ، تلك هى الحركة التى قامت بعد ابن حزم ، فى عهد المنصور الموحدى ، الذى كان شديد الاعجاب به (١٨) ٠ واتخذت شكلا رسميا فى عهد المنصور أبى يوسف يعقوب ابن أبى يعقوب ، الذى حكم المغرب والأندلس ما بين سنتى ٥٥٤ هـ ـ ١١٥٩ م ، ٥٩٥ هـ ـ ١١٩٩ م ، فقد أصدر أمرا برفض فروع الفقه ، وأن الفقهاء لا يفتون الا بالكتاب والسنة النبوية ، ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين المتقدمين ، بل تكون أحكامهم بما يؤدى اليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب ، والحديث والاجماع ، والقياس (١٩) ٠

---

(١٨) ينقلون أنه وقف على قبره وقال : كل العلماء عيال على ابن حزم ، وعلاقة ابن حزم وحريته ، بتلك الحركة الموحدية فى مقاومة التقليد تبدو ظاهرة واضحة ٠

(١٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ـ ٢ ص ٤٣٢ ٠ ط ٠ بولاق ٠

وتشرح لنا فكرة المنصور في الرجوع الى الأصل الاول ، محاورة بينه وبين الفقيه المالكي ، الشيخ أبي بكر بن الجد ، الأشبيلي زعيم وقته « ٤٩٦ هـ ــ ٥٨٦ هـ » ، يقول في روايتها : لما دخلت على أمير المؤمنين ، أبي يعقوب ، أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه ، كتاب ابن يونس ، فقال لي : يا ابا بكر ، أنا انظر في هذه الآراء المتشعبه ، التي أحدثت في دين الله ، أرأيت يا أبا بكر ، المسألة فيها أربعة أقوال ، أو خمسة أقوال ، أو أكثر من هذا ، فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ .. فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر ، ليس الا هذا ، وأشار الى المصحف ، او هذا ، وأشار الى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه ، أو السيف (٢٠) .

وقد حكم القوة فعلا ، اذ تقدم الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأى ، والخوض في شيء منه ، على نحو ما سبقت الاشارة اليه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة (٢١) .

والفكرة فيما يروى (٢٢) قد شغلت أباه من قبله : ابا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وشغلت جده عبد المؤمن بن على ، ولكن ظهر في أيامه ما خفي في أيام أبيه وجده ، واظهر هو من الجد فيها ما لم يظهراه .

ويقال ان مقصدهم في الجملة كان محو مذهب مالك ، وازالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث (٢٣) .

---

(٢٠) ابو محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي : المعجب في تلخيص إخبار المغرب : ص ١٨٥ ط مصر سنة ١٣٢٤ هـ .

(٢١) المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٢٢) المصدر السابق ص ١٨٥ س ١ ، ١٠ .

(٢٣) المصدر السابق ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

والبحث فى منشأ هذه الفكرة ومقصدها مما يجدر تتبعه بدقة فى تاريخ التشريع الاسلامى عامة ، وتاريخ الحياة العقلية فى الأندلس بخاصة ، وانما نكتفى هنا بالاشارة الى موضع الشاهد على ما قصدنا اليه من قوة فكرة الرجوع الى الأصل فى البيئة الاسلامية ، خلال القرن الثانى عشر الميلادى ، واتخاذها شكلا رسميا بتدخل الحكومة ٠

وانك لترى حتى فى المظاهر العملية لنصرة هذه الفكرة، تشابها بين الغرب الاسلامى، والغرب المسيحى ، يلفت النظر ويثير الانتباه ، فأبو يوسف المنصور يأمر باحراق كتب المذهب ، بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن ، فينفذ ذلك ، وتحرق منها جملة فى سائر البلاد ، كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر أبى زيد ، ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ، ونحا نحوها (٢٤) ٠ ويحدث المراكشى المؤرخ ، الذى كان شاهد عيان لهذه الحركة ، أنه شهد وهو بفاس أحمال الكتب يؤتى بها فتوضع ، ويطلق فيها النار ٠

وهذه النار قد التهمت فى الغرب كثيرا من الآراء والمفكرين كذلك ، سواء على يد الرجال المقاومين للاصلاح ، أو على يد الداعين اليه كما أشرنا الى بعض ذلك ، فى تعليقات من هذا البحث ٠

والفكرة الاسلامية فى الرجوع الى الأصل الأول قد راجت ، حتى وصلت آثارها الى المشرق، وقال ابن خلكان(٢٥) بعد ما روى الخبر السابق عنها ما نصه : ـ

« ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا الينا بالبلاد ، وهم على ذلك الطريق ، مثل أبى الخطاب بن دحية ،

---

(٢٤) المصدر السابق ص ١٨٤ ٠

(٢٥) ابن خلكان : ج ٢ ص ٤٣٣ ط بولاق ٠

وأخيه أبي عمرو ، ومحيي الدين العربي ، نزيل دمشق وغيرهم » .

وأثر البيئة الأندلسية في التفكير الديني المسيحي وغيره مما تكرر القول فيه ، وسبقت الاشارة الى اطلاع مثل بطرس الفينرابلي على النظريات الدينية والاسلامية فيها ، والى انشاء مدارس التبشير في اسبانيا نفسها ، والى انشاء الجامعات العلمية المسيحية فيها على يد رجال من علماء المسلمين أنفسهم (٢٦) .

فالتأثر بهذه الفكرة الرسمية الرائجة ليس فيه شيء من البعد ، وهي فكرة واضحة الصلة والارتباط بالفكرة الاصلاحية ، حين نرى الاخذ بالانجيل ، والوقوف عنده فقط ، واطراح ما وراء ذلك من آراء .

٨ — ويتصل بهذه الفكرة في الاعتماد على الكتاب المقدس ، فكرة الاصلاح المسيحي في تفسير الكتاب ، ومن له حق التفسير . وقضية التفسير هي هنا صلب المسألة (٢٧) .

ورأي الاصلاح فيها أن لكل مسيحي الحق في التفسير

(Lutti Cristisni hanno lo stesso d'interpretarle - la parola dị Dio)

ولعل مسألة التفسير أو التأويل هذه ، ليست قديمة قدم غيرها من موضوعات الاصلاح، التي كانت سبب اصطدام مع الكنيسة ، فلم أرها في مسائل الفالديين الذين بكروا بالدعوة الى الاصلاح ، بل نرى الصيغة العملية أغلب في المسائل المبكرة ، أما هذا التفسير فخطوة متأخرة ، تلت عمل الفلسفة المدرسية — المتصلة والمتأثرة بالبيئة الاسلامية — مع

---

(٢٦) اقرأ قول : أ . جيوم ، في تراث الاسلام ج ١ ص ٢٣٢ من الترجمة العربية ، « وكانت اول جامعة عربية في اوربا مدينة بوجودها للعلوم الاسلامية ، ذلك أن الفونس الحكيم (١٢٥٢ — ١٢٨١) قد ساعد رجلا ، اسمه أبو بكر الرقوطي ، وكان أحد اعلام العلم في عصره ، فبنى له مدرسة ، قام فيها بتدريس العلوم في شتى صورها للمسيحيين ، واليهود ، والمسلمين » . ولعلنا نستطيع أن نعرف عن الرقوطي هذا أوضح وأكثر مما يقولون عنه في مثل هذه الفقرة القصيرة .

(٢٧) مور : المصدر السابق . ج ٢ . ص ٣٤٥ .

الدين حين تلاقيا ، فاثيرت مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأخذت حيزها الواسع فى تلك العصور الوسطى .

واذا ما تحدثنا عن التوفيق بين الدين والفلسفة ، وما تلاه من تفسير النصوص المقدسة ، وقفنا نرى الاثر الاسلامى فى هذه المسائل ، فذكرنا مثل جهاد ابن رشد فى هذا التفسير ، وافراده اياه بالبحث فى كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، مع تعرضه له فى غير ذلك من كتاباته سعيا الى رفع ما يظهر من مناقضة بين العلم والدين ، حينما تكون ظواهر عبارات الوحى مثيرة لشىء من هذا .

والرغبة فى التوفيق ، والعمل عليه ، قد أخذت دورا من حياة الفلسفة المدرسية كما اشرنا الى ذلك ــ فصل ٢ فقرة ٧ وفصل ٣ فقرة ٢ مع هامش ١ ــ ، والعلاقة بين كبار العاملين على هذا التوفيق فى الغرب وبين المصادر الاسلامية . مما يتبين كذلك جليا فيما سبق ، وتجد منه على سبيل المثال ما يذكره كتاب الغربيين عن العلاقة بين القديس توما وغيره من مفكرى الغرب ، وبين ابن رشد ، وغيره من مفكرى الاسلام ، واستفادة هؤلاء من تلك المنابع الاسلامية (٢٨) .

ولسنا بحيث نقصد هنا الى تأريخ حركة التوفيق فى الغرب ، وانما نريد أن نقول : ان التفسيرات الرافعة للتناقض الظاهر ، كان يستطيعها أمثال ابن رشد بأنفسهم دون صعوبة كبيرة ، ولم يكونوا يجدون من ينكر عليهم هذا الحق فى التفسير ــ وان خولفوا أو أنكرت عليهم آراء بعينها

---

(٢٨) اقرأ فى هذا فوق ما تكرر ذكره من مصادر تاريخ الفلسفة والأديان ما ورد فى الجزء الأول من تراث الاسلام ــ ترجمة عربية ــ صفحات ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٧ وغيرها) .

« وفى خلال هذا يقرر الكاتب أن ابن رشد بهذا الجهد فى التوفيق بين الدين والفلسفة ، قد ترك للعلم المسيحى اكثر من التعليق على ارسطو .

في هذا التفسير — على حين كانت البيئة المسيحية التي اقتفت أثر المسلمين في هـذا ، تجد الحائل القـوى دون المضى فى سبيلها ، لأن الكنيسة وحدها ، هى التى كانت تتولى الفصل في تفسير نصوص الانجيل (٢٩) •

على أن هذا الحق في التفسير كما أشرنا قريبا ، يتصل بفكرة الاعتماد على الكتاب المقدس وحده وطرح ما عداه ، ثم انه قدر مكمل لفكرة رفض السـلطة الكنسية ، ورفض وساطتها في الغفران ، اذ لا جدوى فى ذلك كله حين يبقى حق تفسير الكتاب المقدس للكنيسة وحدها ، تستخرج من تفسيراتها الخاصة للكتاب ما تستبقى به هـذه السلطات أو أكثر منها •

وليس من القليل الأثر فى هـذا ما عرفه الغربيون — المتصلون بالتفكير الدينى والعلمى فى الاسلام — من نظام التفسـير عنـد عامة المسلمين لكتابهم المقـدس ، وتحكيم الأصول الأدبية والعقلية فيه ، دون سلطة لأحـد بعينه فى ذلك ، أو رجوع لسلطة معينة يتلقى منها التفسير •

٩ — المسألة الخامسة مما تأثر فيه الاصلاح بالاسلام ، مسألة سر الشـكر أو « الافخارستيا » eucarestio (٣٠) انكار الاستحالة الحقيقية ، مع الاعتقاد بوجـود المسيح فى القربان الى جانب الخبز والنبيذ ، دون أن تكون استحاله حقـة •

---

(٢٩) المصدر السابق ص ٣١٣ •

(٣٠) هى مناولة كنسية تمثل العشاء الأخير ، الذى تناوله المسيح مع تلامذته ، وتختار القرابين فيها من أفضل المقدم من خبز وخمر ، يعتبر الخبز جسد المسيح ، ويعتبر الخمر دمه ، ولها رسوم اختلفت باختلاف أدوار حياة المسيحية •

وكان من أسباب انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية وحرمان كل واحدة منهما لصاحبتها ، استعمال الفطير فى هذه المناولة بدل الخبز •

ويلاحظ أن الخلاف حول هذه المناولة ثار فى الغرب منذ انتقلت اليه عدوى البحث العقلى الدينى من الشرق ، فمنذ القرن العاشر بحثوا فى كيفية وجود جسد المسيح ودمه ، وانكرت استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم ، وقيل انهما يبقيان خبزا وخمرا بسيطين وما هما الا رسم لجسد المسيح ودمه فقط •

وهذه المسألة قديمة كذلك • قد نظر فيها بطرس اللومباردى Pietro Lampadi منذ القرن الثانى عشر ، وقال بها فعلا « أوكام » و « أيلى » • وعن هؤلاء أخذها ، لوثر ، الذى وصفنا صلته بهم ـ فصل ٣ فقرة ٥ ـ فاذا وقدر أن الفكرة فلسفية الأصل ، نشأت فى تلك البيئة المدرسية • التى عانت التوفيق بين الدين والفلسفة ، وقال بها ـ كما رأيت ـ أولئك الفرنشيسكانيون ، الذين عرفوا بنصرة الفلسفة الاسلامية ومن كل هذا يظهر قرب هذه البيئة الى التفكير الاسلامى وتأثرها •

فلنذكر فى هذا المقام أن الفلسفة والدين فى الاسلام أو الفلسفتين ، العامة والكلامية ، قد تعارضت نظرتاهما فى مسألة الأسباب والمسببات ، فكان طريق التوفيق بينهما فى ذلك ، طريقا ينتهى الى مثل هذا التوفيق ، بين النظرة المسيحية الدينية ، والفلسفة المسيحية المتدينة ، فى مسألة الشكر التى نتحدث عنها •

فى هذه المسألة المشابهة للمسألة المسيحية ، أى مسألة الأسباب والمسببات بين الفلاسفة والمتكلمين المسلمين ، قال المتفلسفة بالسببية المحضة ، وأنكرها المتدينون ، ولم يروا لها تأثيرا ، فرأى المتكلمون أن ليست الأسباب الا أسبابا عادية ، ووجود المسببات عندها انما هو بخلق الله لا بها (٣١) •

= بل ثار الخلاف فى القرن الثانى عشر حول أن بجسد المسيح ودمه المتناولين : هل هما قابلان للفساد كما كان جسد المسيح قبل الصلب ، او هما غير قابلين للفساد كما كان جسده بعد الصلب ، وهو خلاف يبدو غريبا •

ونما الخلاف بشأن هذه المناولة منذ ظهرت طلائع الاصلاح المسيحى فقويت فكرة انكار استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم ، حتى كان رأى لوثر هو ذلك التوفيق الفلسفى الذى شرحناه ، وان المسيح يوجد الى جانبهما دون أن يتحولا الى جسده ودمه •

(٣١) المسألة معروفة فى البيئات الكلامية ، لكنى مع ذلك أضع بين يدى القارىء طرفا مما ورد عنها فى كتاب التهافت الذى كان معروفا رائجا عند الأوربيين فى القرون الوسطى ، فقد عقد الإمام الغزالى فصلا فيه ، عنوانه « مسألة الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وما يعتقد مسببا ليس ضروريا عندنا ••• » وفيه يقول : « المقام الأول : أن يدعى الخصم =

وقد كانت هذه المسألة مثار المشادة القوية بين ابن رشد والمتكلمين في رده على تهافت الغزالي ، وكلاهما مثل جانبا من جانبي التفكير ، ونحن نعرف أن الغزالي قد كانت آثاره بين يدى الغربيين في سنين مبكرة من القرن الثاني عشر الميلادي ، ونعرف أن تهافته قد ترجم الى اللاتينية ، واقتبست منه أفكار بذاتها في مؤلفات مسيحية ، على ما سبق بيانه ، كما نعرف أن الفلسفة الرشدية قد سادت وتحكمت في أوربا عهودا طويلة ، فالجانبان من الرأى وحججهما · قد كانا في أيدى فلاسفة الغربيين بلا مراء ، دهرا طويلا ·

واذا ما قدرنا كل هذا فلا بعد في ان نقول : ان هذا الحل الفلسفي بعينه في مسألة الاستحالة ، قد جاء محاكاة للحل في مسألة الأسباب · وهى فلسفية أيضا وأن نجد القرب الشديد بين هذه الفكرة الفلسفية في مسألة الاستحالة الدينية للخبز والنبيذ الى جسد المسيح ودمه ، والفكرة الكلامية في مسألة الأسباب الفلسفية ، نعم نجد قربا يبرر الاطمئنان الى استنتاج أن الفكرة في وجود المسيح عند مادة سر الشكر ، لا أن المادة تستحيل فعلا الى جسده ودمه ، قد تأثرت بفكرة أن المسببات يخلقها الله عند وجود أسبابها ، لا أنها توجد بها نفسها · الفكرة هى الفكرة ، والنزاع يشبه النزاع ، والمتنازعان هما العقيدة والفلسفة · والتوفيق الاسلامى دينى يريد ارضاء الفلسفة ، والتوفيق المسيحي فلسفي يريد

= أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار ، فلا يمكنه الكف عما هو طبعه بعد ملاقاته لمحل قابل له ، وهذا مما ننكره ، بل نقول : فاعل الاحتراق بخلق السواد فى القطن ، والتفرق في أجزائه ، وجعله حراقا ـ كغراب ما يقع فيه النار عنه القدح ـ ورمادا هو الله تعالى ، اما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة ، فأما النار فهى جماد لا فعل لها ، فما الدليل على أنها الفاعل ، وليس لهم دليل الا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به · الى أن يقول بعد ذلك « فقد تبين ان الموجود عند الشيء لا يدل على أنه موجود به » ا هـ · من ص ٦٥ ـ ٦٦ : تهافت الفلاسفة ، طبع القاهرة سنة ١٣٢١ ·

وقد ناقش ابن رشد هذا الفصل فى ص ١٢٢ وما بعدها من تهافت التهافت ـ طبع القاهرة مع تهافت الغزالى ـ

أن يفهم الدين ، او يرضيه ، والتوفيق الغربي متاخر عن التوفيق الشرقي بوقت طويل ، وقد عرف اللاحق السابق .

١٠ ــ المسألة السادسة من نواحي التأثر : مسألة قديمة، ظهر بها مذهب مسيحى قديم ، منذ عصور مبكرة ، واقرها الاصلاح وسار عليها ، تلك هى **مسألة الصور** ، اذ قال المذهب الايكونوكلاستى Iconoclasti ، فى القرن التامن الميلادى ، **بابطال عبادة الصور ، ورفعها من المعابد ، بل وصل الى تدنيسها وتحطيمها** ، ثم اتفق البروتستانتيون جميعا على ابطال عبادة الصور .

وهذا المذهب قديم الصلة بالاسلام فى الشرق ــ ولو ان فكرته نفسها أقدم ظهورا من الاسلام ــ ، والعلاقة بين ليون الثالث الأيساورى مكسر الأصنام ، الذى أقلق سلام الدنيسه، وأظهر الفكرة فى عنف ، وبين الاسلام والمسلمين علاقة وثيقة (٣٢) . وفى تعليل عمله ضد الصور ، يقول كاتب كنسى ــ هو الخورى عيسى أسعد صاحب كتاب الطرفة النقية ــ : ان ليون فعل ذلك لأسباب سياسية ، اذ رغب فى التقرب الى المسلمين بذلك ، أو فعل ذلك تقليدا لحركة من هذا النوع قام بها فى ذلك العهد المسلمون فى ديارهم .

ولا يعنينا كثيرا أن نعمل لترجيح أحد الاحتمالين فى هذا المكان ، فكلاهما كاف لايضاح أن أقوى حركة عرفها تاريخ المسيحية ضد عبادة الصور كان لها بالاسلام مثل ذلك الاتصال فى نشأة القائم بها ــ ليون الثالث الايساورى leone III l'isaurier أمبراطور القسطنطينية ــ وفى تفكيره .

---

(٣٢) يتحدث ابن الأثير فى الكامل ــ ج ٥ ص ١٠ وما بعدها ط القاهرة ــ بأن ليون هذا جاسوس للعرب ، وأنه جاء سليمان بن عبد الملك فضمن له فتح الروم ، فكانت غزوة مسلمة للقسطنطينية التى يفصل ابن الأثير خبرها فى هذا الموضع ويبين كيف انتهى الأمر بتمليك الروم ليون هذا عليهم اذا صرف المسلمين ، وانه احتال لذلك ، وبعد هذا ببضع سنوات قام بحركته فى تحطيم التماثيل وابطال عبادتها ، تلك الحركة التى تكاد تكون أقوى ما عرف فى تاريخ مقاومة التماثيل بالكنيسة .

والحـركة الاسلاميـة التي سمعت خبرهـا في تحطيم التماثيل ، هي التي قام بها الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ ٧٢٠ م ، ـ وكانت حركة ليون المسيحية سنة ٧٢٦م ـ ، اذ كتب يـزيد الى حنظلة بن صـفوان والى مصر ، أن يكسر الأصنام والتماثيل فكسرت كلها ، ومحيت من ديار مصر وغيرها في أيامه (٣٣) ٠

ويذكر صاحب الطرفة النقية الآنف ذكره في سبب قيام يزيد بن عبد الملك بهذه الحركة ، أن حاخاما يهوديا اغراه باصدار أمر يحظر فيه التصوير لكي لا يكون للمسيحيين ميزة على كنيس اليهود ، ففعل ، لكن امر يزيد على ما يرويه صاحب النجوم الزاهرة لا ذكر فيه للتصوير أو الصور ، والخليفة يزيد في غنى عن أن يحرض على هذا تحريضـا سواء بشأن الصور أو التماثيل ، والأمر في الأخيرة آشد ، نعم لابد أن يكون هناك سبب مباشر ، دفع الى اصدار هـذا الأمر الخاص بكسر التماثيل ، ولكن ليس يجب أن يكـون المحرض من غير البيئة الاسلامية ، الناقمة على ذلك دائما ٠

وعلى كل فالمؤرخ لا يغفل في سهولة صلة ما بين عمل يزيد ، وعمل ليون في وقت متقارب ، لا يزيد الفرق فيه عن بضع سنوات ، بعد ما عرفت صلة ليون القوية بالمسلمين، ولحظها كاتب كنسى ٠

تلك مسائل مما تجلت فيه الصلة بين الاسلام عقيدة وعمـلا وتفكيرا ، وبين البيئـات الاصلاحية المسـيحية في أوربا ، وأكثرها ممـا تبين فيه طريق الاتصـال بعبـارات الكتاب الغربيين أنفسهم ٠

وفي هذا ما يكفي للتمهيد للفكرة ، ولفت نظر علماء تاريخ الأديان الى استكمالها ، بالدرس والتنقيب في حيـاة

---

(٣٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٠ طبع دار الكتب الملكية ٠

الدينين . وما يصل طماعيتي في متابعة هذه الدراسة واستيفائها .

واذا كان الأستاذ الفريد جيوم يقول بعد ما تحدث عن تراث الاسلام في الفلسفة والالهيات ما نصه : —
«وسوف نرى عندما تخرج الى النور الكنوز المودعة في دور الكتب الأوربية ، أن تأثير العرب الخالد في حضارة العصور الوسطي ، كان أجل شأنا وأكبر خطرا مما عرفناه حتى الآن » .

فانى لأقول : **سوف نرى عندما تتجه الرغبة العلمية الى درس هذه الصلة بين الدينين في نزاهة واخلاص ، أن أثر الاسلام في حياة أوربا الدينية ، لا يقل أبدا عن أثره في حياتها الفلسفية ، والعلمية ، والفنية .**

خاتمــة

كان لهذا الموضوع عنــد الغربيين ســواء في مصر او أوربا وقع لافت ، حتى لقــد تقدم الينــا في حفله افتتــاح المؤتمر ، بمدينة بروكسل أعضاء الوفد الايطالى ، يسألون عن الوفــد المصرى ، ومن سيتكلم في موضوع « الاســلام والاصلاح البروتستانتى » مظهرين اهتمامهم بالموضوع •

ولقد تلطف الاستاذ هـ : ماسى H. Massi الأستاذ بجامعة باريس ، والذى اختير لرياسة القسم الاسلامى بالمؤتمر ، فسأل بعد القاء خلاصة الموضوع ، عن طبعه ، ومتى وأين يكون ؟ وطلب أن أرسل اليه نسخة عربية عند ما يتم ذلك • اذ هو لا يعرف الايطالية التى كتب بها البحث ، على ما أظن •

ولعل في هذا الاهتمام بالموضوع ما يرجع الى شيء من الدهش لجدته ، أو ما يرجع الى تشوف العصبية الدينية ، لما يمكن أن يقال فيه •

فأما الجدة فنعم • وأما العصبية فأحسب أن الله قد وقى من خطرها على الحق • ويهمنى أن أؤكد في الختام ما قلته في البدء من : أن البحث العلمى النزيه ، هو الطلبة الأولى والأخيرة فيما كتبت ، وأرجو أن يشعر القارىء معى بهذا ، وأن أكون قد وفقت الى التزام ذلك دائما •

★★★

وأرى من الخير ، أن أشير الى حادث يسير الخطر ، كبير الأثر ، يمس هذا الموضوع في مصر ، ويتصل بفهمنا للأمانة العلمية ، وتقديرنا لها • ذلك أن الحديث عن موضوع هذا

البحث ، واختياره ليقدم الى المؤتمر ، كان قد تناثر بمصر منذ وجهت الدعوة اليها ، حوالى نهاية ١٣٥٣ هـ ـ ابريل سنة ١٩٣٥م وذكرت اذ ذاك آن هذا الموضوع ، يشغل فكرى منذ نحو عشر سنوات ، أيام كنت فى روما ، ورأيت نسخة من ترجمة القرآن الكريم ظهرت حوالى عهد الاصلاح الدينى ، وقيدت ذلك فى مذكرات علمية محفوظة •

فى تلك الأثناء ـ أواخر سنة ١٣٥٣ هـ ـ كانت مطبعة المنار ، تخرج طبعة سابعة من رسالة التوحيد ، للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وقد اعتاد الناشر ، وضع عناوين فرعية من عنده فى رءوس الصفحات ، تبين محتويات الفصول ، كما صرح بذلك فى صفحة ١٦٦ من الطبعة السابعة نفسها ، وكما رأى من حقه أن يعلق على الرسالة فى هامش الصفحات ، تعليقات من عنده •

ففى الطبعات المتقدمة على هذه الطبعة ، كان يضع بين عناوينه الفرعية للفصل الخاص بانتشار الاسلام فى اسـر الرسالة ، عنوانين : هما « الحروب الصليبية » واستفادة أوربا من المسلمين » و « استفادة أوربا من الاسلام » • لكنه فى الطبعة السابعة التى أرخها بعام ١٣٥٣ هـ ، استغنى عن هذين العنوانين ، بعنوان جديد نصه : اقتباس الاصلاح الدينى فى أوربة من الاسلام ـ ص ١٩٤ ط سابعة ـ وورد فى الرسالة تحت هذا العنوان ما عبارته « ولم يكن بعد ذلك الا قليلا من الزمن ، حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته ، وجاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد (١) الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام ، الا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ، ولا يختلف معنى الا فى صورة العبادة لا غير » • اهـ •

---

(١) هنا علق الناشر فى الهامش بما نصه « هم طائفة الموحدين واكثرهم من الانكليز والأميركان » ، وهذا التعليق أيضا جديد فى هذه الطبعة السابعة لا يوجد فى الطبعات الاخرى •

وما في هذه الفقرة من أن الاصلاح لا يبعد عن الاسلام الا قليلا ، أو أن العقائد صارت به تتسق مع عقيدة الاسلام .. الخ ، لا ذكر فيه لشيء من الاقتباس أو التأثر ، ولا يكفي لوضع هذا العنوان الصريح ، عن اقتباس الاصلاح الديني في أوربا من الاسلام ، ولو كان مثل هذا المعنى الذى في العنوان ، قد اتجه اليه الأستاذ الامام ، وهو يكتب رسالة التوحيد ، لما كفته فيه ، تلك العبارات العامة المبهمة !!

ولقد كنت أبحث ، متمنيا أن أجد من صرح بهذا الاقتباس في الشرق أو في الغرب لأشعر بنصرته للفكرة ، ثم أمضى في بيانها وتأييدها ، فلم تصل يدى الى شيء من ذلك . ولو أن الأستاذ الامام ، قد أشار الى هذا الاقتباس لكان ظهيرا لى آنس به ، لأتقدم الى بيان الفكرة ، وتأييدها ، على نحو ما صنعت ، في كشف مسالك الاتصال والانتقال بين الدينين، وما كان لذلك من أثر في مبادىء الاصلاح المسيحى ، وآراء أصحابه ... لكن كلام الأستاذ الامام لا يفيد شيئا من ذلك في قرب .

★★★

فناشر المنار قد أضاف الى رسالة التوحيد ، عنوانا جديدا ــ ص ١٦٤ ط سابعة ــ ليس له ظل من الوجود في الطبعات السابقة ، كما زاد هامشا جديدا في الصفحة نفسها ، ليس له وجود في الطبعات السابقة . ولا رعاية في هذا كله لشيء من الأمانة العلمية ، وفيه ما فيه ، من التعمية على التاريخ ، ولا مبرر لذلك كله ولا مقتضى له . وكان خيرا من ذلك لو أراد فائدة قرائه ، أن يشير في الهامش ، الى ظهور هذه الفكرة ، وتكميلها البحث ، واثباتها استفادة أوربا من الاسلام ، في آراء الاصلاح نفسها .

ولو مضيت في الاستنتاج الذى تبرره الشواهد السابقة، لاتهمت تاريخ هذه الطبعة للرسالة بعام ١٣٥٣ ، وانه لون من التعمية أيضا .

لكنى أدع هـذا كلـه ، مكتفيا بأن أتمنى للباحث ، والناشر ، والقارىء فى الشرق أن يوقى مثل هذا التساهل وعدم التقدير للأمـانة العلمية ، ولا سـيما أبنـاء أولئك السالفين ، الذين عرفنا من دقتهم فى الرواية ما عرفنا ، ورأيناهم يتحرجون فى ذلك تحرجا شديدا ، ويشيرون الى أيسر تغيير فى روايتهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

على هذه الأمانة لقيت قارئى منذ بدأت البحث ، وعلى هذه الأمانة أنتهى به الى ما انتهيت اليه من نتائجه . والسلام على من اتبع الهدى ؟

الفهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٧١/١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3233 — 0

بالمنهجية الرصينة المعهودة من الشيخ امين الخولى . يبحث فى عمله هذا - الذى ألقاه فى مؤتمر تاريخ الأديان ببروكسل عام ١٩٣٥ - الاتصال المادى بين الإسلام والمسيحية فى أوروبا . ثم الاتصال المعنوى بين الإسلام والمسيحية فى أوروبا . ثم آثار ذلك الاتصال فى أفكار الإصلاح المسيحى وآراء دعاته خلال تلك الأزمنة الطويلة . وهو موضوع ذو أهمية قصوى نظرا لإشكالية الحوار / الصراع بين الحضارات التى تشغلنا الآن كثيرا .

٢٢٠ قرشا

مطابع الهيئة المصريه العامه للكتاب